فاتحة

نظام القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

ديباجة الكتاب

الحمد لله الواحد الصمد، المبدع الهادي إلى الرشد، الذي لم يلد ولم يولد، والصلاة والسلام على عبده ورسوله محمد ﷺ الذي أجاب به لإبراهيم ما وعد. فبعثه في آمن البلد وسد به موضع اللبنة الأخيرة في قصر النبوة المصمد. وأيده بقول بليغ جد. أزاح به الأود من قوم لد. واختار له منهم خير أمة من ركع وسجد، وقائمين بالقسط وشهد.

أما بعد، فقد اجتهدت في هذا الكتاب-بحول الله وتوفيقه-أن أكشف عن نظام آيات القرآن العظيم، وأن أفسره تفسيرا ساذجا، غير خالط به من اختلاف نجم فينا بعد عصر نبينا ﷺ. فالتمست معنى الآيات من أخواتها، وكذلك استنبطت نظام السورة من أعماقها، ومن نفس سياقها، ثم بعد ذلك أيدت ما فهمنا من القرآن بالنقل والعقل. ففي أمر النظام تدليت في غور الكلام بالبصر النافذ، وفي أمر التفسير عضضت على كتاب الله بالنواجذ.

وكنت في هذا على بصيرة من ربي، غير متبع لأحد، ومع ذلك لم أكن ببدع في تتبع النظام، لأن جماعة من العلماء قصدوا إليه، وصنفوا فيه. قال العلامة السيوطي في الإتقان:

''أفرده بالتأليف العلامة أبو جعفر ابن الزبير شيخ أبي حيان في كتاب سماه ''البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن'' ومن أهل

العصر الشيخ برهان الدين البقاعي في كتاب سماه ''نظم الدرر في تناسب الآي والسور''[١].

وذكر أنه صنف كتاباً جمع فيه كل ذلك، مع بيان وجوه الإعجاز، وقال:

''علم المناسبة علم شريف قل اعتناء المفسرين به لدقته، وممن أكثر منه الإمام فخر الدين، فقال في تفسيره: أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط''[٢] انتهى كلام السيوطي رحمه الله.

ووجدت في تفسير الرازي تحت آية:

﴿وَ لَوْ جَعَلْنَاهُ قُرآناً أَعْجَمِيًّا لَقَالُوْا لَولاَ فُصِّلَتْ آيَاتُـــه أ أَعْجَمِـــيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ [سورة فصلت/١٣٨].

فقال الرازي رحمه الله تعالى:

''نقلوا في سبب نزول هذه الآية أن الكفار لأجل التعنت قــالوا: لولا نزل القرآن بلغة العجم؟ فنــزلت هذه الآية وعندي أن أمثال هذه الكلمات فيها حيف عظيم على القرآن لأنه يقتــضي ورود الآيات لا تعلق للبعض فيها بالبعض وأنه يوجب أعظـــم أنـــواع الطعن، فكيف يتم مع التزام مثل هذا الطعن ادعاء كونـــه كتابـــا منتظما، فضلا عن ادعاء كونه معجزا؟ بل الحق عندي أن هـــذه السورة من أولها إلى آخرها كلام واحد (كلم إجمـــالا في تفـــسير السورة ثم قال): كل من أنصف و لم يتعسف علم أنا إذا فـــسرنا هذه الآية على الوجه الذي ذكرنا صارت هذه السورة من أولهـــا إلى آخرها كلاما واحدا منتظما مسوقا نحو غرض واحد، فيكون

---

[١] الإتقان للسيوطي ٢: ١٣٨ .

[٢] المرجع السابق ٢: ١٣٨.

هذا التفسير أولى مما ذكروه''[٣]. انتهى قول الـــرازي رحمــــه الله تعالى.

وقال الشيخ عز الدين بن عبد السلام:

''فإن القرآن نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة شرعت لأسباب مختلفة وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض''[٤].

فهذان مذهبان مختلفان للعلماء، وعلى كليهما فريق، الأول عندي حسن، وبه آخذ. وإنما نقلت ذلك لتعلم أمرين: الأول أنه ليس مما سكت عنه العلماء، والثاني أن هذا عبء ثقيل لم يقم له إلا قليل، وخبأ مستور لم يخرج منه إلا يسير.

وقد يسر الله تعالى لي، بمحض نعمته، فهم نظم القرآن في ســـورة البقرة وسورة القصص من نفس القرآن وإني كنت مولعا بتلاوته، وهـــو أحب الكتب وألذّه عندي ولله الحمد وقد كنت أسمع أن القرآن أشـــت الكتب نظما لنـــزوله نجما نجما ولكن بعد ما ظهر لي النظام في ســـورتين حثني على التدبر في باقيها، وكنت في حدث السن وعوز الفرصة، فمضت بضع عشرة سنة حتى وفقني الله تعالى أن ابتدأت من أول القرآن ويسر لي الإتمام في سنة كاملة وهممت أن أبرزه للناس فرد عني عظم الذمة وروعني كبر الغبة فمكثت أراجع فيه النظر مرة بعد مرة أمدا طويلاً مستعيذا بالله من ظلمات النفس وغوايات الجهل. ومع ذلك وددت لو طويته على غره، وسكت عن حلوه ومره، ونجوت من إثمه وبره ولكن اضطرني إليه أمور:

١- الأول: أني رأيت جل اختلاف الآراء في التأويل من عدم التزام رباط الآيات، فإنه لو ظهر النظام واستبان لنا عمود الكلام لجمعنا تحـــت

---

٣ التفسير الكبير ١٣٥/١٤

٤ الإتقان ٢: ١٣٨.

راية واحدة وكلمة سواء ﴿كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء﴾ [سورة إبراهيم/٢٤] وجعلنا معتصمين بحبل كتابه كما قال: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيْعاً ولاَ تَفرّقوا﴾ [سورة آل عمران/١٠٣].

وكيف الخلاص عن التفرق الأصلي، وقد جعلوا هذا الحبل أشتاتاً في ظنونهم وهو بحمد الله متين. ﴿لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنَ يَدَيْهِ ولاَ مِن خَلْفِهِ تَنْزِيل مِنْ حكيم حميدٍ﴾ [سورة فصلت/٤٢] فيؤوله كل فريق حسب ظنه ويحرف طريق الكلام عن متنه وبالنظام يتبين سمت الكلام فينفي عن آيات الله أهواء المبتدعين، وانتحال المبطلين، وزيغ المحرفين ﴿الذين يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ والذين يقلعون كلام الله عما بين يديه ومن خلفه، ويضمون به ما يعجب هوى نفوسهم متشبثين بروايات ضعيفة غير مميزين بين ما ثبت عن النبي ﷺ وأصحابه وبين أقوال الشياطين الذين يوحون إلى أوليائهم زخرف القول غرورا.

٢- والثاني: أني رأيت الملحدين قد طعنوا في القرآن من جهة سوء النظم، ورأيت جمهور علماء المسلمين - عوض الشهادة بالحق، والمنافحة عن حقيقة كتاب الله - قد تفوهوا بمثل ما قالوا: ﴿كَبُرَتْ كلمةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ [سورة الكهف/٥].

﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ للكافرينَ علَى المُؤمنينَ سبيلاً﴾ [سورة النساء/١٤١].

وقد علمت حق اليقين أن قولهم باطل وحجتهم داحضة، فلم يسعني أن أسكت وأرى الباطل قد عمت بلواه وبلغ السيل زباه.

٣- الثالث: أنه لا يخفى أن نظم الكلام بعض منه فإن تركته ذهب بعض معناه، فإن للتركيب معنى زائدا على أشتات الأجزاء. فلا شك أن من حرم فهم النظام فقد حرم حظا وافرا من الكلام ويوشك أن يشبه حاله بمن

قبله من أهل الكتاب، كما أخبر الله تعالى عنهم: ﴿فنسوا حظّا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة و البغضاء إلى يوم القيامة﴾ [سورة المائدة/١٤] وأخاف أن تكون هذه العداوة والبغضاء التي تراها في المسلمين من هذا النسيان، فلا تهدأ عداوتهم، ولا يرجعون من اختلافهم. وسبب ذلك ما ذكرنا في الأمر الأول، لأنا إذا اختلفنا في معاني كلامه اختلفت أهواؤنا وصرنا مثل أهل الكتاب، غير أن رجاءهم كان بهذا النبي وهذا القرآن الذي يرفع اختلافهم وأما نحن فليس لنا إلا هذا الكتاب المحفوظ.

٤- والرابع: أن الله تعالى أنزل كتابه نجما نجما للتثبيت حيث قال ﷻ عز من قائل: ﴿وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة.... كذلك لنثبت به فؤادك﴾ [سورة الفرقان/٣٢] ثم جمعه وبينه. كما قال: ﴿إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه﴾ [سورة القيامة/١٧-١٩] فما تمت سورة إلا بعد ما جمع الله آياته وزاد فيها ما شاء النسيان فكان النبي ﷺ يضع الآيات في مواضعها حسب وحي الله، وربما يمكث إتمام سورة فيعجل النبي ﷺ لما يهيجه الشوق فنبه الله تعالى على مصلحة المكث حيث قال: ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يُقضى إليك وحيُه وقل رب زدني علماً﴾ [سورة طه/١١٤].

وإن الله تعالى كان يعلم أن بعض الأحكام لتخفيف عن الأمة فيها فلذلك تجد الآيات المخففة بعد الحكم الأول وهذا لضعف خلقة الإنسان، كما ذكر الله تعالى بعد هذه الآية: ﴿ولقد عهدنا إلى آدمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِي وَلم نجد له عزماً﴾ [سورة طه/١١٥] وكذلك ترى تصديق هذا عند قوله تعالى: ﴿الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا﴾ الآية [سورة الأنفال/٦٦].

فهذه الآية موضوعة بعد الحكم الأول، وكذلك ترى في سورة المزمل آيتها الأخيرة التي نزلت بعد مدة فوضعت بعد الحكم الأول.

وكذلك ترى آية: ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث﴾ الآية [سورة البقرة/١٨٧] وكذلك قوله تعالى

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً﴾ الآية [سورة البقرة/٢٤٠]

فإنها نزلت كالتتمة، فوضعها الله تعالى بعد التتمة الأولى لشدة العناية بها. وبسط القول تحت هذه الآية.

وفي أكثر المواضع ترى بعد أمثال هذه الآيات قولا مثل قوله تعالى ﴿وكذلك يُبَيِّنُ اللهُ آياتِهِ للنَّاسِ﴾ فظهر أن هذا هو الإنجاز لما وعد في قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [سورة القيامة/١٩] وإجابة لدعاء علمه النبي ﷺ بقوله: ﴿وَ قُلْ ربّ زدني علماً﴾ [سورة طه/١١٤].

ثم مع ما علمنا من القرآن بالتدبر في آياته نرى فيما روى عن الأصحاب أن النبي ﷺ كان يأمر بوضع الآيات في مواقعها، وكان جبريل عليه السلام يقرأ عليه السورة بعد تمامها، فهذا هو الجمع والقرآن والأمر باتباعه.

ثم نرى أن الأمة، بنعمة الله، لم تختلف في ترتيب الآيات، وليس في أيدي جميع فرق المسلمين إلا القرآن بهذا الترتيب والله يفعل ما يشاء وهو فعال لما يريد.

٥- والخامس: أن من ظهر عليه حسن الترتيب والسمت البارع الذي يجري إليه الكلام، وتجلت له منه سواطع البرهان ومحاسن مقامها وغوامض الحكم موضوعة في نظامها علم أن له في نظام الآيات قسطا وافرا من كتاب الله فازداد على علمه إيقانا وعلى فهمه اطمئنانا. فكان على بصيرة من ربه فيجتهد في إبراز ما استكن من النظام فيرزق منه ما شاء الله ويشكر على نصيبه منه. ثم ما استصعب عليه نسبه إلى قلة فهمه، فإن كلام الله العظيم بحر لا تنقضي عجائبه ونور لا يحاط به، فالمرء ليس

بمأمون عن الخطأ ولكن مع ذلك لا يطفأ شوقه، ولا يذهب عنه أريحيته. ألا ترى كيف أظهر وحدث بهذه النعمة من رزق منها شيئا. نقل العلامة السيوطي في كتابه:

"أول من أظهر علم المناسبة الشيخ أبو بكر النيسابوري وكان غزير العلم في الشريعة والأدب، وكان يقول على الكرسي إذا قرئ عليه: لم جعلت هذه الآية إلى جنب هذه ؟ وما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة ؟ وكان يزري على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة"[٥]

ونقل السيوطي عن ابن العربي في كتابه سراج المريدين أن:

"ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى يكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني، منتظمة المباني علم عظيم لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة، ثم فتح الله لنا فيه فلما فلم نجد له حملة، ورأينا الخلق بأوصاف البطلة، ختمنا عليه، وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه إليه"[٦].

وكذلك ترى الإمام الرازي استعظم هذه النعمة، وحمد الله عليه في عدة مقامات.

وترى المخدوم المهائمي الهندي الذي خص تفسيره لبيان مناسبات الآيات استعظم هذه النعمة عن قدره مستصغرا نفسه، معترفا لها بالتدنس حتى قال إنها من محض من الله تعالى، وسمى تفسيره بـ "تبصير الرحمن وتيسير المنان" [illegible].

فهكذا كان محل هذا العلم عند من أعطى منه حظا ولم يكن ذلك

---

[٥] الإتقان [illegible]

[٦] المرجع السابق [illegible]

منهم إلا بعد أن أيقنوا بأن الآيات منظمة بأسلوب متقن حكيم، كما قال الشيخ ولي الدين الملوي:

"قد وهم من قال: لا يطلب للآي الكريمة مناسبة لأنها على حسب الوقائع المفرقة، وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلا، وعلى حسب الحكمة ترتيبا وتأصيلا"[٧*].

وكيف يشك فيه من وجد مس برده، وشم ريح ورده، وتمتع بنسيم عرار نجده ولكن من لم يذق فإن ارتاب فيه فلا تثريب عليه.

ولا أحب إطالة القول حين أنا واضع بين يديك ما أخبرتك عنه، ولكني أردت أن أمهد لك من قبل، فإن النظام لا يبرز إلا بالتدبر. فإن كنت موقنا بعدمه مستبدا بذلك الرأي نبا به سمعك، واستكرهت التدبر فيه.

وإن سألتني أن النظام إن كان كما وصفته بجلالة الشأن، وعظم النفع، ودقة المسالك فلم سكت عنه الصحابة ﷺ، ولم يبينه النبي ﷺ؟ فاستمع، هداك الله، أن مواقع الآيات ومواردها كانت أبين شيء عند الصحابة ﷺ، فإنها كانت على حسب حالاتهم وما بين أيديهم من الأمور فلو كنا في ذلك العصر لما خفي علينا نظامها، ومثل ذلك سبب لقلة التفسير عنهم فإن اللسان لسانهم والأسلوب أسلوبهم والأمور أمورهم، فلا نشاركهم في ذلك. ولكن في تصريف القول، وفصل الخطاب، وسوق البرهان لنا دلالات إلى ما وراءه وتخرج منه لامعات لمن قلب الطرف في أطرافه.

هذه جملة القول في النظام غير ما نزيد عليه في المقدمات.

أما التفسير بالآيات، فقال العلامة السيوطي في الإتقان:

---

* الإتقان: ٢: ١٣٨ .

"قال العلماء: من أراد تفسير الكتاب العزيز طلبه أولا من القرآن، فما أجمل منه في مكان فقد فسر في موضع آخر وما اختصر في مكان فقد بسط في موضع آخر منه. وقد ألف ابن الجوزى كتابا فيما أجمل في القرآن في موضع وفسر في موضع آخر منه، وأشرت إلى أمثلة منه في نوع المجمل، فإن أعياه ذلك طلبه من السنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له. وقد قال الشافعي ﷺ: كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن. قال الله تعالى ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾ في آيات أخر. وقال ﷺ ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه: يعني السنة هذا التفسير من الشافعي رحمه الله والصواب عندي "مثله معه" هو الفهم والبصيرة والنور الذي أشرق به قلبه مع إنزال الوحي كما قال الله تعالى: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا﴾ الآية [سورة الشورى/٥٢] فإن لم يجده من السنة رجع إلى أقوال الصحابة (رضوان الله عليهم)، فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرائن والأحوال عند نزوله، ولما اختصوا به من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح"[٨*].

فعلمت من هذا أن أول شئ يفسر القرآن هو القرآن نفسه، ثم بعد ذلك فهم النبي ﷺ والذين معه، ولعمري أحب التفسير عندي ما جاء من النبي ﷺ وأصحابه ﷺ.

وقد أسس تفسيره بعض العلماء على الأحاديث كابن جرير الطبري رحمه الله الذي حكموا على تفسيره أنه لم يصنف مثله ولكن الأحاديث فيها أكثرها ضعاف والمرفوع فيه قليل، وإنما جمع فيه أقوال أهل التأويل مع كثرة الاختلاف فيما بينها.

---

* الإتقان ٢: ٢٢٥

وإني، مع اليقين بأن الصحاح لا تخالف القرآن، لا آتي بها إلا كالتبع، بعد ما فسرت الآيات بأمثالها، لكيلا يفتح باب المعارضة للمارقين الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم والملحدين الذين يلزموننا ما ليس له في القرآن أصل، ولكي يكون هذا الكتاب حجة بين فرق المسلمين وقبلة سواء بيننا.

فإني ما أردت أن أجمع كل ما يتعلق بالقرآن، فإنه كنز لا ينفد على كثرة المجتهدين. والكتب في التفسير كثيرة، فمن يسرح فيها نظر التحقيق يؤت من العلم ما شاء الله ولكني أردت ما يكون كالأساس، والأم، والوسط، والحكم. ولذلك اقتصرت على ما في القرآن، غير جاحد لما تركته، كما جمع الإمام البخاري رحمه الله في كتابه كل ما ثبت عنده من الحديث متفقا عليه، مع ما ترك كثيرا من الصحاح. بل إني ما أوردت في هذا الكتاب معشار ما استكن في نفس القرآن من الحكم والحقائق، وإن شاء ربي أجمع منها في كتاب آخر وهو الملهم للحق والصواب.

وبعد التمسك الشديد بالقرآن آتي بشهادات الكتب التي نزلت على من قبلنا، كما آتي بما روي من الأحاديث تبعا. والغرض كشف ما وافقت فيه الآيات، وإقامة الحجة على الأمتين من كتبهم، كما أنهم يتشبثون بما يزعمون أنهم يجدون في كتبنا (انظر المقدمة الثانية).

هذه جملة القول قدر ما ينبغي في ديباجة الكتاب، ولكن أرى الحاجة باقية إلى أمور مهمة جامعة، فأجعل لها حظا من المقدمات التي أكتبها قبل الشروع في التفسير لنحول إليها في مطاوي التفسير احترازا عن تشويش الكلام، وكثرة التكرار. وقسمت الكتاب في مائة وأربعة عشر قسطا، جاعلا لكل سورة قسطا واحدا، ولله المنة ومنه المنة. فإن أصبت في شئ فذلك من فضله، وإلا فكان كما كانت حاجة في نفس يعقوب قضاها.

المقدمة الأولى
في شأن النزول

ليس شأن النزول، كما قيل تسامحا، سببا لنزول آية أو سورة، بل هو شأن الناس وأمرهم الذي كان محلا للكلام فما من سورة إلا ولها أمر أو أمور جعلتها نصب العين وذلك تحت عمود السورة. فلك أن تلتمس شأن النزول من نفس السورة فإن الكلام لابد أن يكون مطابقا لموضعه كما أن الطبيب مثلا يتوسم من نسخة الدواء داء من قد كتبت له تلك النسخة. فإذا كان سوق الكلام لموضوع تناسب هذا الكلام والموضوع، كتناسب اللباس والجسم، بل كتناسب الجلود والأبدان. والكلام له مناسبة بين أجزائه بعضها ببعض. وما جاء في الآثار أن كذا وكذا من الآيات نزلت في كذا وكذا من الأمور فمعناه أن كذا وكذا من الأمور كان موجودا حين نزول السورة، لكي يعلم أن الآيات كانت لها دواع ومواقع. قال السيوطي: قال الزركشي في البرهان:

"قد عرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال: نزلت الآية في كذا، فإنه يريد بذلك أنها تتضمن هذا الحكم، لا أن هذا كان السبب في نزولها، فهو من جنس الاستدلال على الحكم بالآية، لا من جنس النقل لما وقع. قلت: والذي يتحرر في سبب النزول أنه ما نزلت الآية أيام وقوعه"[1] انتهى قول السيوطي.

وبهذا ينحل ما أشكل على الإمام الرازي في سورة الأنعام في تفسير الآية: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا﴾ [سورة الأنعام/٥٤] حيث قال:

[1] الإتقان: ٤٢ .

"ولي هنا إشكال وهو أن الناس اتفقوا على أن هذه السورة نزلت دفعة واحدة، وإذا كان الأمر كذلك فكيف يمكن أن يقال في كل واحدة من آيات السور أن سبب نزولها هو الأمر الفلاني بعينه"[10].

فإن الأمر عندي، كما علمت، أن الله تعالى حين أنزل سورة ما كان إلا ليبين الأمور التي اقتضت التبيان بكلام لم يلتبس نظامه، كما يفعل الخطيب الحكيم. فإنه ينزل كلامه، ويسوقه على حسب دواع خاصة بين يديه، فكثيرا ما لا يذكر أمرا خاصا ولكن يجري كلامه إلى ما يحوي أمثاله من الصور والحالات، وقليلا ما يسمي أمرا خاصا أو شخصا خاصا، فيأتي بكلام على سابغ كغيث مطبق. وكان نزول القرآن العظيم هكذا، كما قال الله تعالى:

﴿وَإِنْ تَسأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرآنُ تُبْدَ لَكُم﴾ [سورة المائدة/١٠١].

فكان القرآن يأتي بجوا بهم حين نزوله، جاريا على رسله ومنهجه فإذا بلغت سورة حد الكلام، وقضت شأنها، وأوفت لدواعي الكلام بيانها سكنت، وألقت جرانها، فما جاوزت ولا قصرت ولكن ربما كانت الحاجة باقية، فأنزل الله سورة أخرى، ولكن بدل الأسلوب الأول، لكيلا يملوا، وشأن النزول لم يتبدل ولذلك ترى في أول النبوة سورا كثيرة في ذكر البعث والتوحيد وتصديق الرسول وما يلتئم بها، ولكن يتبدل الأسلوب وتصريف القول.

وكذلك ربما وقعت حاجة لتوضيح أمر، فنزل بعض الكلام، و وضع حيث كانت حاجته إنجازا لما وعد: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [سورة

[10] التفسير الكبير ٣/١٣.

القيامة/١٩].

فلم يراع زمان النزول، بل نظام القول ثم ربما نبه أن هذا بيان بعض الآيات فإنك ترى بعد أكثر آيات الحقت بأخواتها للبيان مثل قوله تعالى:

﴿كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُم يَتَّقُونَ﴾ [سورة البقرة/١٨٧].

كما مر في الديباجة.

فإن أردت الحق الصريح واليقين المريح فلا يبعدك طلب شأن النزول عن أصل نظم القرآن العظيم، فيبهم عليك الأمر، ويغادرك في مفرق السبل، لا تدري أيها تسلك، بل تجسس شأن النزول من القرآن، ثم بعد من الأحاديث ما يؤيد القرآن لا ما يبدد نظامه ثم العبرة بشأن النزول الذي تبين من النظم أول أمر تراعيه، فإن الحكم العام الذي نزل في أمر وحالة خاصة جعل لهذه الحالة شأنا يهدي إلى حكمة الحكم وجهته، كما ترى في تعدد الأزواج ووحدتها. فالأول للقسط باليتامى والآخر للقسط بالزوج، فالقسط بالضعفاء هو المطلوب، والفضيلة للحق السابق. وكذلك ترى في أمر الرهن، فإن رهن مال المسلم أمر دني فأحله للضرورة وأمر برده عند عدم الضرورة. وبسط الكلام تحت آية ٢٨٣ من البقرة.

المقدمة الثانية
في المآخذ الخبرية

من المآخذ ما هو أصل وإمام، ومنها ما هو كالفرع والتبع. أما الإمام والأساس فليس إلا القرآن نفسه وأما ما هو كالتبع والفرع فذلك ثلاثة:

١- ما تلقته علماء الأمة من الأحاديث النبوية

٢- وما ثبت واجتمعت الأمة عليه من أحوال الأمم

٣- وما استحفظ من الكتب المنـزلة على الأنبياء. ولولا تطرق الظن والشبهة إلى الأحاديث والتاريخ، والكتب المنـزلة من قبل لما جعلناها كالفرع، بل كان كل ذلك أصلا ثابتا يعضد بعضه بعضا من غير مخالفة.

فوجب على من يحاول فهم القرآن أن لا يأخذ من الروايات ما يهدم الأصل أو يقلعه فإني رأيت بعض الروايات تقلع الآيات وتقطع نظمها إلا أن تؤول، ولكن التعجب ممن يؤول الآية ولا يؤول الرواية، وربما لا يؤول الآية بل يرضى بقطع نظامها، والفرع أولى بالقطع.

وكأين رأينا من فروع طويلة تموت إذا لم تحيهن أصول

والعجب كل العجب ممن يقبل ما هو مكذب لنص القرآن مثل كذب إبراهيم عليه السلام، ونطق النبي الكريم ﷺ بالقرآن من غير وحي. فينبغي لنا أن لا نأخذ منها إلا ما يكون مؤيدا للقرآن وتصديقا لما فيه، كما أن الآثار المنقولة عن ابن عباس رضي الله عنهما أقرب الأقوال من نظم القرآن

فنشير إليه كالتبع.

وكذلك تاريخ أهل الكتاب أقرب من الأخبار المنقولة عندنا، فإن المفسرين أخذوها من أفواه العامة والذين قل علمهم بالكتب التاريخية في قصص الأنبياء وبني إسرائيل. فالصواب أن نأخذ من كتبهم المعتبرة كالتبع فحيث يختلف عن القرآن نتركه. فإنهم كتموا الشهادة، وقال الله تعالى فيهم: ﴿أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ [سورة البقرة/١٤٠].

كما ترى في قصة فداء إسمعيل عليه السلام فما هو في القرآن أصل، ولا شك فيه. فإننا لا نفرق بين الكتب المنـزلة والقرآن عندنا منها. فإذا رأينا الاختلاف نظرنا في صحة الرواية، فرجحنا الأثبت رواية وإذا لم يكن اختلاف بينها فلا بأس أن نأخذ مما لم يثبت رواية بعد عرضه على محك الدراية، كما أن نذكر من الزبور ما أشار إليه القرآن حيث قال: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [سورة الأنبياء/١٠٥].

ومن صحف موسى ما أشار إليه حيث قال: إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى﴾ [سورة الأعلى/١٨-١٩].

وكذلك من التاريخ مثل قوله تعالى: ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين﴾ [سورة الإسراء/٤].

فالذي يهمك (أولا) هو أن تعلم أن القرآن، في كشف معناه، لا يحتاج إلى هذه الفروع فإنه هو المهيمن على الكتب السابقة، وهو الحق الواضح الذي يرد الخصام فيقضي بين المتخاصمين. ولكن إن أردت تصديقه فالنظر في الفروع يفيدك ويزيدك إيمانا واطمئنانا. ولذلك قال الله تعالى: ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ [سورة النحل/٣٦].

ومن نظر في الكتب السابقة استبان له فضل تعليم القرآن عليها،

وإعادة بعض ما نسوه من كتبهم، وكشف ما بدلوه.

والذي يهمك (ثانيا) هو أن تجعل بين ما نطق به القرآن وبين ما تجد في الفروع سدا وحاجزا، فلا تخلطهما فالقدر الذي في القرآن ثابت والذي زاد عليه مظنة للوهم، فلا تجعل من أنكر بعض ما في الفروع كالذي أنكر القرآن.

والذي يهمك (ثالثا) هو أن تعلم أن الخبر، وإن تواتر لا ينسخ القرآن، وحقه التأويل أو التوقف. ألا ترى أن الإمام الشافعي رحمه الله، وأحمد بن حنبل رحمه الله وعامة أهل الحديث يمنعون نسخ القرآن بالحديث وان كان متواترا وصاحب البيت أدرى بما فيه فمن خالفهم من الفقهاء والمتكلمين لا نقيم لرأيهم وزنا ونعوذ بالله أن ينسخ الرسول كلام الله، ولابد أن يكون وهم أو خطأ من الرواة. والنظر في دلائل الفريقين لا يزيدك إلا اطمئنانا بما هو الحق الواضح. وليس هذا مقام تفصيله، وبعض القول في المقدمة ١٧ تأويل القرآن بالحديث.

المقدمة الثالثة
في المآخذ اللسانية

كما أن الله تعالى وعد أن يحفظ متن القرآن العظيم، حيث قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [سورة الحجر/٩].

فكذلك وعد بيانه حيث قال: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [سورة القيامة/١٩].

فمن بعض إنجاز وعده أنه حفظ اللسان العربي من الاندراس والمحو، وجعله حيا باقيا. وكذلك حفظ الاصطلاحات الشرعية كالصلاة، والزكاة، والجهاد، والصوم، والحج، والمسجد الحرام، والصفا، والمروة، ومناسك الحج، وأمثالها، وما يتعلق بها من الأعمال المتواترة المتوارثة المأثورة من السلف إلى الخلف والاختلاف اليسير فيها لا اعتبار له. ألا ترى أن اسم الأسد مثلا معلوم معناه، مع اختلاف يسير في صورة الأسود من بلاد مختلفة. فالصلاة المطلوبة منا مثلا هي صلاة المسلمين، ولو اختلفت هيئتها اختلافا خفيفا. ومن يلتمس التدقيق فيها فقد جهل مكان الدين القويم الإلهي الذي علمه القرآن، حيث قال:

﴿لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا ولاَ دِمَاؤُهَا ولكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ [سورة الحج/٣٧] واتبع خطوات اليهود الذين فرقوا دينهم، و وقعوا في الشبهات. واذكر ما ذكر الله تعالى من حالهم حين أمرهم بذبح بقرة فبقوا سائلين، ونبيهم يقول لهم:

﴿فَافْعَلُواْ مَا تُؤمَرُونَ﴾ [سورة البقرة/٦٨] وبعد ذلك هم غير

فاعلين، حتى إذا ذبحوها ما كان ذلك إلا ببركة قولهم: ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [سورة البقرة/٧٠] فقال الله تعالى في حقهم ﴿وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [سورة البقرة/٧١].

فإذا نظرت إلى ألفاظ مصطلحة في الشرع ولا تجد حدها وتصويرها في القرآن فلا تجمد على أخبار الآحاد، فتسقط في الريب وتحكم على أخيك بالبطلان وتشاقه، ولا حكم بينكما. بل اقتنع بالقدر الذي اجتمعت عليه الأمة ولا تؤاخذ إخوانك فيما ليس فيه نص صريح ولا عمل مأثور من غير خلاف. فهذا هو السبيل الوسيع والمعنى الواضح من القرآن في اصطلاحاته الشرعية.

فأما في سائر الألفاظ وأساليب حقيقتها ومجازها فالمأخذ فيه كلام العرب القديم والقرآن نفسه. وأما كتب اللغة فمقصرة، فإنها كثيرا ما لا تأتي بحد تام، ولا تميز بين العربي القح والمولد، ولا تهديك إلى جرثومة المعنى فلا يدري ما الأصل، وما الفرع ؟ وما الحقيقة وما المجاز ؟ فمن لم يمارس كلام العرب واقتصر على كتب اللغة ربما لم يهتد لفهم بعض المعاني من كتاب الله. ومن كلام العرب القديم الذي وصل إلينا ما هو منحول، وما هو شاذ، ولكن لا يصعب التمييز بين المنحول والصحيح على الماهر الناقد. فينبغي لنا أن لا نأخذ معنى القرآن إلا مما ثبت.

وكذلك يجب أن نترك المعنى الشاذ من اللغة كما قيل في معنى التمني أنه هو التلاوة. وما فزعوا إلى هذا المعنى الشاذ الذي لم يثبت إلا فرارا من بعض الإشكال، وهذا أفتح لأبواب الفتنة واختلاف الأمة. فمن ترك جادة الطريقة وأذلالها لعبت به الأوهام والأهواء.

وأما باقي علوم اللسان كالنحو، والمنطق، والأصول، والبيان

والبلاغة، والقافية فالكتب المدونة فيها، مع كثرة فوائدها، أشد تقصيرا من كتب اللغة لفهم القرآن.

أما النحو فيحتاج إلى زيادات، بل ليس من شأنه إلا تأسيس أصول كلام وسيط بين السقط والرفيع. فلا ينبغي للمفسر أن يبالغ في تطبيق كلام الله بأصول النحو، فيرممه، ويؤوله، فيظن ظان أنه جائر عن قصد السبيل، بل عليه أن يأتي بشهادة من أشعار العرب، ليعلم الجاحد أنه لهو الأسلوب الأعلى.

وأما المنطق فمداره التدقيق في استعمال ألفاظ التحديد، والنفي، والاستثناء، وسوق الدليل، فيشكل عليه ﴿عَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [سورة البقرة/٣١] ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ﴾ [سورة الإسراء/٥٩] ولا يهتدي لحجج القرآن. ونتكلم فيها في مقدمة أخرى.

وأما علم البيان فحاله كحال النحو، لا يتصدى لكلام يتفجر من صدوع القلب الحي، وما أبعد مما يتصبب من سماء الوحي. فترى صاحب الوحي، بل كل داع إلى الحق ينفث ما في قلبه كيفما دعته الحالات فطورا يأتي بالمجاز، وطورا بالحقيقة ولا يراعي إلا فهم المخاطبين والعادة الجارية في لسانه، فيقول بالابن والأب، ويقسم جسمه في الجسوم، ويجعل لحمه ودمه في غيره، ويأتي باليد، والساق، والوجه، والعرش، والكرسي، والبسط، والقبض، والنشر والطي، والحسرة، والانتقام، والغضب، والتحنان فيفهمه المخاطب. ولكن الذي يجمد على علم البيان فيدب كالنمل، ويخبط كالأعمى. ومن رأى الزبور وكتب الأنبياء علم أن المجاز له مجال وسيع في الوحي.

وأما الأصول فإنا لا نجحد فضل من أسس هذا الفن، فإنهم لم يأخذوه من اليونان ولا الهند ولا غيرهما، بل دعت الحاجة إلى وضع أصول لاستنباط الأحكام من الكتاب والسنة، فهم قدوة في هذا الفن الشريف. ولكن الخلف لم يهتدوا لتهذيبه وإصلاحه فبقي الفن واهي القوى، ضئيل الأركان، ولما يبلغ مبلغا به يستحق اسم الفن. فترى فيه اختلافا كثيرا ينجر إلى اختلاف الأحكام، وليس الأمر كذلك في النحو، والمنطق، وغيرهما من الفنون ونتكلم فيه بقدر الحاجة الشديدة، ولعل الله يوفقني أن أهذب هذا الفن، والأمر بيده.

وأما البلاغة فاستخرجوها من أشعار العرب، و الأشعار لضيق مجالها كانت مقتصرة على جودة السبك، ورشاقة اللفظ، والبديع. أما (١) حسن الاستدلال، و(٢) رباط المعاني، و(٣) ضرب الأمثال، و(٤) الاعتبار من القصص، و(٥) جر الكلام ثم العود إلى عموده، و(٦) الوعد، و(٧) الزجر، و(٨) التأكيد بشدة يقين المتكلم، و(٩) الإعراض: إعراض الترفع، و(١٠) الحسرة: حسرة المعلم الناصح، وغير ذلك مما يوجد في خطبات البلغاء ووحي الأنبياء فما ذكروه في علم البلاغة، لأنهم فاتتهم خطبات العرب، وما نظروا في خطبات العجم.

ولذلك ترى الباقلاني رحمه الله، مع جهده البالغ في كشف إعجاز القرآن، إنما تعرض لأشعارهم وألقى بين يديك أنموذجا من الخطب ليبين لك الفرق بمحض المقابلة و لم يذكر من أمور عشرة ذكرتها: فخمسة منها عقلي، وخمسة نفسي. وإذ هي ليست من خصائص لسان دون لسان فلا يحتاج إلى الاستشهاد من كلام العرب بل ينبه عليها، ويكون القرآن في ذلك دليلا من نفسه على نفسه.

ثم علم البلاغة غير مقنع في معرفة أساليب الكلام لأن العجم يصعب عليهم التعمق في أنحاء بيان العرب، وهم المصنفون لكتب البلاغة فالشكر أولى بهم، لما مهدوا لنا من الشكاية لما فاتهم، فربما بلغوا المرام وربما دلوا عليه لما حاموا حوله.

وليتضح لك ما أردت، أذكر بعض أساليب تختص بلسان العرب في مقدمة على حدة وكذلك نقدم كلاما على حدة في البحث عن قوافي القرآن وانسجام كلماته إن شاء الله تعالى، وهو الملهم للصواب.

المقدمة الرابعة
في كشف الكتب المنـــزلة بعضها ببعض

فيما يتعلق باللسان وأساليب البيان. وأما في ما يتعلق بالأحكـــام والأخبار فنتكلم عليه في مقدمة أخرى١١.

فاعلم أن كلام المسيح المروي باللغة اليونانية أصله عـــبراني. فلغـــة الإنجيل وكتب العهد العتيق واحدة ولا شك أن ١- العربي والعبراني، وهما لغتا الكتب المنـــزلة، صنوان. إذا كان الأمر هكذا لابد أن تـــشبه بعـــضها بعضا، أوتهدى إحداهما إلى معنى الأخرى (أولا) ٢- ثم لما كانت مطالـــب هذه الكتب متقاربة (ثانيا) ٣- ونبعت كلها من ضئضئ الـــوحي (ثالـــثا) فجدير بها أن تتساوق ٤- ولما أن القرآن وعدنا تفصيل بعض أمور التبست على أهل الكتاب ينبغي لنا أن نفهم ما يفصله القرآن لنا (رابعا) ٥- ولما أنه يصدق الكتب المنـــزلة ازددنا اطمئنانا إن علمنا توافقهما، وسبيل تأويـــل بعضها إلى بعض (خامسا) ٦- ولما أن القرآن قول فصل وقرآن مبين وأكثر الكتب المنـــزلة شعر وتخييل يلزم على من أراد فهمها أن يلتمسه من القرآن (سادسا) ٧- ولما أن لغة كتب العهد العتيق صارت معطلة، فغـــاب أدبهـــا وغاض مشربها، فلا بد أن يفهم كلامها من لغة القرآن (سابعا).

و لم يحثنا على هذا إلا أني وقفت على بعض كلام صار فتنة لأهل الكتاب، ولو علموا لغة العرب لم يضلوا. وقال المسيح ﵇: ''اللفـــظ

---

١١ انظر المقدمة الثامنة

يهلك، والمعنى ينجي'' فعكفوا على الألفاظ. وكذلك نرى بعض المسلمين يسخرون من بعض عبارة الإنجيل، ولو أوّلوها إلى تعليم القـــرآن لكـــان أجدر بهم، وأمرنا في القرآن بالإيمان بما تشابه في القرآن ولا نـــرى علـــة لانطواء هذا الحكم عن سائر الكتب المقدسة والتكذيب ممن جهل التأويل ذنب عليه: كما قال الله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَ لَمَّـــا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْـــفَ كَـــانَ عَاقِبَـــةُ الظَّالِمين﴾ [سورة يونس/٣٩].

وكذلك يأمرنا قول النبي الكريم ﷺ بأن ''لا تصدقوا أهل الكتاب (يعني فيما رووا عن الكتب المقدسة فإنهم لم يحفظوه) ولا تكذبوهم''(٢) (فإنه يمكن أننا لم يأتنا تأويله).

فان ظننت أن الكتب المقدمة غير محفوظة، فإذا أولنا القرآن بها لم نأمن الخطأ. فاعلم أن الأمر كما ظننت ولكنا، أولا، نفهم القـــرآن مـــن نفسه ولغته: لغة العرب. ثم إذا رأينا في الكتب المقدسة ما يقاربـــه معـــنى ويتعلق بأمر واحد تأملنا في أسلوبهما، فيتضح.

١- بلاغة القرآن

٢- وتزداد الثقة بما رأينا مرجحا من بين المعاني

٣- ويتبين لنا معنى بعض كلام الوحي القديم المشتبه المحال حسب الظاهر، فيكون دليلا لأولى الفهم من أهل الكتاب إلى صحة القرآن، ولنا إلى صحة كتبهم، فيفتح باب الوفاق بيننا، وهو أقرب إلى الهداية.

وأنت ترى بعض المسلمين يسخرون بآيـــات الإنجيـــل، وإلى الله المشتكى ممن يسخر بالمسيح نفسه، وقد نهينا عن الجدال إلا بـــالتي هـــي أحسن وعن سب أربابهم، فلم يزدهم إلا تنفرا وتباعدا، فحرمـــوا قبـــول

الحق، واتسع بيننا الشق. ولما أن الحق يعلو على الباطل، والنور يمحو الظلمة لا حجة أبلغ من أن نضعهما معا، ليصطفي العاقل منهما خيرهما، كما ذكر القرآن في صفة المهتدين: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [سورة الزمر/١٨].

فهذه الوجوه دعتني إلى بحث ما في كتب العهد العتيق والجديد، فلم أرد إلا خيرا، وكله بيد الله، فمنه أسأله هذا. ونذكر في مقدمة أخرى بعض ما ضلت فيه النصارى، فمنه ما هو قطب رحى دينهم. الأول: لفظ الابن والأب، والثاني: أن الخبز والشراب ينقلب لحم عيسى ودمه، والثالث: أنه قاعد في يمين الرب وينزل في فوج الملائكة، ويحكم عليهم يوم القيامة، والرابع: أنه يرسل فارقليط، فيعلمهم تفاصيل الشريعة واضحة، والخامس: أن رجال قرنه يرون ما أنذر به. فهذه الأمور تتضح من بحث معاني الألفاظ، كما سيأتيك إن شاء الله تعالى.

المقدمة الخامسة
في أن القرآن قطعي الدلالة

واحتمالها (أي آياته) المعاني الكثيرة ينشأ من قصور العلم والتدبر. والعلماء الذين نقلوا أقوالا مختلفة في تفاسيرهم أرادوا أن يخلوا بيننا وبين كل ما قيل في توجيه الآيات، فنختار منها ما يرجح عندنا. ولكن ليس لنا أن نحفظ الأقوال من غير ترجيح عندنا، فنبقى حيارى، جاهلين. وخذ مثالا من تفسير الإمام الرازي في معنى الفتنة في الآية ١٩١ من البقرة، فإنه رحمه الله نقل خمسة وجوه.

فما أوردت في كتابي هذا إلا ما صح عندي، وهذا كان دأب السلف الصالحين، فإن كثرة الأقوال تخبط أكثر الناس وربما نقلوا الأقوال من غير استيعاب الدلائل، فهذا ظلم على قائله، وظلمة على من يسمعه. وما أخذت معنى الآيات من كتب التفسير، ولكني تأملت في رباط الكلام وآيات مماثلة، فإذا تقرر عندي معنى جملة من الآيات نظرت في تفسير الرازي والطبري رحمهما الله تعالى، فربما وافقني واحد من أقوال السلف، وربما كنت قريبا من بعضهم، وربما فهمت معنى ثم رجعت منه، وربما أشكل علي شئ فوقفت. ومع كل هذه الأمور نحول الإشكال والإبهام إلى قلة علمنا، وقصور فهمنا، وتقليدنا لما قد أخذنا من الآراء التي أخطأنا فيها.

وإن استبعدت أن الأمر الواضح كيف يبهم علينا فلعلك استخففت ما بنا من التدنس والغفلات ظلمات بعضها فوق بعض... من

الحقائق الظاهرة التي لا يهتدي إليها المحجوبون كوجود الباري وتفرده، ووجود الروح حاكما على الجسم، وإتيان يوم الجزاء، فصاحب البصيرة لا يمكنه الشك في هذه الحقائق. وإذ قد وجد من يشك في الله وتفرده، فأجدر بما سواه أن يبهم على الناس. كما أن للحواس أدواء فكذلك للعقل والشئ يوصف لحاظا إلى صحة الحال، كما أن الشمس بازغة و واحدة، والسكر أبيض حلو، مع أنهما ليسا كذلك للأعمى، والأحول، والمحموم. وقد أعلن القرآن فقال: ﴿هُدىً لِّلْمُتَّقِيْنَ﴾ [سورة البقرة/٢] و ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً﴾ [سورة الإسراء/٤٥] وهكذا في غير موضع. أما سمعت قول سقراط إن الحقائق معلومة للنفس ولكنها غشيها النسيان، وقول الرومي: أول نفسك ولا تؤول القرآن، وقول الحافظ: أنت نفسك الحجاب فارفعه، فماذا أرادوا بهذه الكلمات ؟

فنعتقد أن القرآن اختار من الأساليب أبينها وأقربها وأحسنها، و لم يبدل أسلوبا إلا وفيه دلالة خاصة. وسنبحث عن هذا في مقدمة بعونه تعالى، نذكر فيها أصولا للتأويل ترد المعاني المحتملة إلى واحد [12].

وأما الآيات المتشابهات، والحروف المقطعات فلا أجد شيئا أوضح منهما في الدلالة على معانيهما، و نتكلم عليهما في مقدمة أخرى لكيلا تمل، ولكي تفرغ لما تحسبه جللا.

---

١٢ يقصد كتابه ''التكميل في أصول التأويل'' وهو مطبوع .

المقدمة السادسة
في المناسبة والترتيب

اعلم أن القرآن يأتي بجملة من المعاني على نظام مختلف، فيأتي بأمر واحد على أطوار مختلفة حتى أن العبارة عن أمور متحدة تتبدل والمعنى واحد، كما أن أمير الجيش يرتب جيشه على تآليف شتى، ولا يتبين حسن نظامه إلا لمن مهر في فنه وأما لمن هو دونه فبما يعقبه من النصر والغلبة. والغرض منها عند بعض العلماء إظهار الإعجاز وعندي، والله أعلم، أن الإعجاز ليس من أغراض القرآن، بل هو من لوازمه ألا ترى في كل ما خلق الله من حبة خردل بل من ذرة إلى السماوات العلي كلها معجزة ولكن ليس شئ من خلقتها لغرض الإعجاز بل لحكمة الله تعالى في خلقه. نعم إن عجز غيره عنها دليل على كونها من الله تعالى.

فالغرض من اختلاف الأسلوب ليس إلا زيادة فائدة غير ما كان لأجل ما ينبغي في الكلام من الحسن، والصيانة من التكرار. فإن الشئ الواحد إذا تراءى لك مرارا بأطوار كثيرة لابد أن تفهمه تماما، فإن فاتتك منه لمحة ستأخذ بك منه أخرى، كما قال الله تعالى: ﴿انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون﴾ [سورة الأنعام/٦٥].

ثم لكل تأليف دلالة خاصة إلى حكمة خاصة. فإذا وجدت الأمر الواحد على أشكال مختلفة، دعاك إلى التدبر في أوضاعها وسألت نفسك: لم هذا الترتيب خلاف ذاك والمعنى واحد، فهديت إلى دلالة خاصة به.

فلما كان للترتيب دلالة على معنى خاص يهمنا البحث عن أنحائه ودلالاته.

أما أنحاء الترتيب، فالأمر الواحد ربما يؤتى به كالعمود وربما يذكر كالتبع، وحينا يورد مجملا وحينا مفصلا، ومرة يقدم وأخرى يؤخر، وتارة يفرد وتارة يقترن فتلك أربع تقسيمات، تحت كل واحدة منها قسمان، فالجملة ثمانية أبواب.

وقبل أن نبحث عنها مفصلا نشير إلى أن أول أمر يطلب هو العمود، ومنه يتبين لك قسمه، ثم ما هو المجمل فإن المعنى الذي يحتوي المعاني المفصلة يذكر مجملا. ثم إذا تأملت في ترتيب أجزاء الكلام علمت وجه وضعها مقدما أو مؤخرا. ثم إذا قايست جملة من المعاني المتحدة في سور شتى فرأيت أن أمرا واحدا ذكر في مقام مفردا وفي الآخر مقرونا بقرين له، ثم ربما رأيت أن أمرا واحدا يقرن بأمور تارة بهذا وتارة بذاك، فإذا نظرت في الترتيب من هذه المناظر رأيت لأمر واحد وجوها حسب وضعه، وهديت إلى تأويله الصحيح.

أما العمود فلا يكون لسورة إلا واحد، وهذا الواحد ربما يحتوي على أشياء كثيرة، كالذي عمدت إليه سورة الحجرات، فما هو إلا شئ واحد وان لم يكن له اسم في اللغة، وهبه التوبيخ على سوء الخلق ظنا وقولا وعملا. فنهى عن التقدم بين يدي الرسول، ورفع الصوت فوق صوته، والجهر له كجهر بعضهم لبعض، وندائه حين الصبر خير لهم، والوثوب على قوم بقول كل فاسق. وأمر بالإصلاح بين طائفتي المؤمنين، وبالعون على الباغي، ثم بالعدل بينهما. ثم نهى عن السخر من الناس، ولمزهم، والتنابز بالألقاب، وسوء الظن، والتجسس، والغيبة، والفخر بالنسب. وتزكية النفس، وأقبحها أن يمن أحد على النبي إسلامه. وما أردت هنا إلا تمثيلا لكثرة في وحدة. وحسن نظامها مبين في موضعها.

وليس العمود ما هو أعظم المقاصد حقيقة، بل هو الشيء الجامع

الذي به رباط السورة بأسرها، ولكنه أهم الأمور بيانا في سورة ذكر فيها. ألا ترى آية النور تتلألؤ في وسط السورة كواسطة العقد في الوشاح، أو كتعرض الثريا في كبد السماء، مع أنها ما جاءت إلا تبعا. وعمود السورة حسن الأدب في أمور ربات البيوت. ولذلك أمر النبي الكريم ﷺ بتعليمها النساء لكي يعلمن ما لهن وما عليهن.

وأما التبع فتشييد بحجة، أو مثل، أو تمهيد بهما لما يتلوه، أو توسيع ما سبق، أو تحديده، أو جواب سؤال مستكن، أو تمهيد لما يأتي بكلمة، أو ذكر ما يلائم الموضع من حكمة وحكم، أو تفصيل ما سبق، أو تحريض من الوعد والوعيد والمدح والذم، أو بيان بمزيد العلم، أو إظهار الحمد وصفات الرب حسب الموقع، وذلك روح القرآن.

وأما المجمل فلبيان الأصول والكليات، وبه ينبه على سر الشرائع والمفصل فهذا باب وسيع لتوجيه النظر وتعليم التدبر والحكمة. وأما المقدم والمؤخر فلوجوه خاصة [ذكرناها في كتابنا ''التكميل في أصول التأويل''].

إن كنت ممن يوقن بأن الله راعى النظام الحكيم في كلامه، ورأيت أمرا قد قرن بأمر فلابد لك أن تطلب المناسبة. فهذا الطلب يهديك إلى أمور خفية لا يهتدي إليها من مر عليه ولم يتدبر. فإن الأمر الواحد له جهات مختلفة واعتبارات شتى: فمن جهة هو يناسب بأمر، ومن جهة أخرى بأمر آخر.

مثلا الصلاة تناسب الحج، لكونهما صورة ذكر الله، ولما أن فيهما تعبدا جسمانيا، ولما أنهما منوطتان ببيت الله، ولما ثبت عن النبي الكريم ﷺ أن الطواف صلاة.

ثم للصلاة مناسبة بالصوم، لكونهما غير مختصين بمكان، ولكون

الصبر مدارهما، حتى إن السكوت قد كان من شرط الصوم. فالصلاة صوم النفس في باطنها. فهذا من جهة التشابه.

ثم للصلاة مناسبة بالزكاة من جهة التقابل، وتكميل الواحد بالآخر، وانشعا بهما من أصل واحد، فأصل الصلوة ركون العبد إلى ربه محبة وخشية، وأصل الزكاة ركون العبد إلى العبد محبة وشفقة فلا يكمل الصلاح إلا بهما، فالمحبة أصلهما. فعلمنا أن أصل الدين هو المحبة ورقة الباطن ولطافة الشعور، حتى إن الله تعالى جعل أقدم صفاته الرحم، وقال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [سورة الأعراف/٥٦].

فالدين ليس إلا التخلق بظل صفات الله، وقد كرم الله الإنسان بخلافته، فالتأمل في مناسبة الصلاة يهدينا إلى أصل الدين ومخ الشرائع، وهكذا يعلم من التوراة والإنجيل (انظر المقدمة في عيون تعليم القرآن)

ودونك مثالا أدق مما مر: قد ذكر الله تعالى في سورة العقود ما أحل من المآكل، ثم من المناكح،، ثم الوضوء. فههنا أمران: الشئ. وشرط الشئ فذكر من الشرائط ما يتطهر به: فالذبح طهور للبهائم، والمهر وقصد الإحصان طهور للنساء، والوضوء طهور للصلاة. ثم هدى الله إلى هذه الحقيقة فقال في آخر الآية: ﴿مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ [سورة المائدة/٦].

أما الشئ نفسه فههنا ذكر ثلاثة أشياء: طيبات الطعام والنساء والصلاة. فإن تدبرت علمت أن هذا العالم عالم الفناء والكون، فالشخص، والنوع، والروح ثلاثة عوالم. فجبر اضمحلالها بالطعام، والنكاح، والصلاة. ثم ترى المناسبة بين الطعام والنكاح في تخصيص محلهما من المحرمات حتى إنه نزلت آياتهما على صورة واحدة، حيث قال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ﴾ [سورة النساء/٢٣] و ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ

وَالدَّمُ﴾ [سورة المائدة/٣].

وكذلك ترى المناسبة بين النك ح والصلاة من جهة أخرى. فالنكاح وازع عن التدنس، والصلاة ﴿تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ [سورة العنكبوت/٤٥]

ثم انظر المناسبة في هذا المثال بين النكاح والصلاة من جهة الطهور، وفي سورة البقرة من جهة التخفيف، حيث قال: ﴿حافظوا على الصلوات... فإن خفتم فرجالاً أو ركبانا﴾ [٢٣٨-٢٣٩] فالحفظ على النكاح واجب حتى الوسع، ثم فيه عند الطلاق بعض التخفيف في الأجر، فكذلك في الصلاة. فاعلم أن لكل قران منظرا كقران النجوم.

المقدمة السابعة

في إثبات أن السورة الواحدة لها نظام واحد، ونفي الاقتضاب

١- إنا نرى أن سور القرآن منها قصار، ومنها طوال بأضعاف من قصارها. فلو لم يكن أمر واحد، ومنهج كامل تتم السورة بتمامه لجعل القرآن كله سورة واحدة.

٢- ولما لم يرد الله أن يجعل السور على مقدار خاص، فلو لم يرد أمرا واحدا ونظما كاملا في سورة واحدة لما سلك آياتها في سلك واحد، بل فرق بين أشتاتها، فلا حرج أن صارت أبعاض سورة على قدر سطر واحد.

٣- ثم نرى أن الله تعالى جعل جملة من الآيات في سورة وسماها سورة، كأنه تعالى ضرب بسور حول مدينة، فكيف يجمع مدنا في سورة والتشابه في المعنى لا يجمعها، فإن المعوذتين مع شدة مناسبتهما جعلتا سورتين و كذلك سورة التكوير، و الانشقاق، والمرسلات، والنازعات، والذاريات متحدات في المعنى ولكن النظم وأسلوب الكلام مختلف فيها.

٤- ثم نرى أن التحدي ما وقع على أقل من سورة، حين بان لهم عجزهم عن الإتيان بعشر سور، والسور قصار وطوال، و لم يرد الله قدر سورة من الكلام، كما فهم بعض المفسرين ثم أشكل عليهم وجه الإعجاز في هذا القدر، فإن مثلا آية: ﴿حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم﴾ [سورة النساء/٢٣] الآية أكثر من سورة الكوثر فما وجه الإعجاز في هذه الآية. ولكن الله أراد سورة بتمامها. فالإتيان بمثلها خارج عن طوق الإنس

والجن وإن قصرت كالكوثر. فيغلب الظن بأن الله تعالى أراد بالسورة كلاما منتظما، فيشترك القصير والطويل في اسم السورة، كما أن الشجر والنبات والحيوان سواء الكبير والصغير منها في اسم الحيوان. وعثرت على كلام من بعض العلماء يوافق هذا الرأي، فنقل السيوطي في الإتقان:

"قال الجعبرى حد السورة قرآن يشتمل على آي ذي فاتحة وخاتمة، وأقلها ثلاث آيات" ١٣ فهذا المحقق علم أن السورة لها نظام ذو فاتحة، وخاتمة، وعمود، فلابد من ثلاث آيات.

٥- ثم مع ذلك إن تدبرنا قصار السور لمح لنا أنها تضاهي الطوال رباطا ونظاما، فإن دقة العلاقة ولطافة الرباط في آيات القصار مثل ما هي في الطوال. و لم يجترئ أحد، ولا ينبغي له أن يقول بالاقتضاب في القصار، مثل سورة الماعون، والكوثر، والعصر. فإذا وصلت إلى المنهج الدقيق في هذه السور هديت به إلى رباط الطوال.

٦- وكذلك بعض الجمل من الطوال أظهر رباطا من أن يجهله إلا من كان على غاية الجمود أو عدم التدبر، مثل عشرين آية من أول سورة البقرة. فمن تفكر فيها استعد لما هي ألطف منها، ثم إذا استخرجها انبعث إلى الألطف منها، وهكذا كان أمري. فإذا مارس أحد هذا البحث تبين له المسلك الواضح، وقد قال الله تعالى: ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى﴾ [سورة محمد/١٧].

---

١٣ الإتقان ١: ٦٩

المقدمة الثامنة

في نسبة القرآن إلى الكتب السابقة في أمر الأحكام والحقائق

كما أن الشمس إذا طلعت لا يهتدي السالك بالنجوم الشوابك، فهكذا بعد نور القرآن أعرض المسلمون عن الكتب السابقة المختلطة صدقا وكذبا كل الإعراض. ولكن لما أن القرآن أحد الكتب المنزلة، ونبينا واحد من الأنبياء، ونحن المسلمين مع كثرة الرسل أمة واحدة لابد لنا أن ننظر فيما سبق -

١- لنعرف قدر القرآن الحكيم، ونشكر فضل الله الجسيم.

٢- ويظهر لنا تأويل تلميحات القرآن التي خفيت عن الخلف من المفسرين، فلم يهتدوا لوجه الكلام في غير موضع.

٣- ويتبين لنا سبيل إفحام أهل الكتاب. وأما أهل التفسير فمع أنهم أكثروا من الإسرائيليات تركوا الكتب المقدسة إلا قليلا من العلماء الذين أظهروا الحق على أهل الكتاب وأقاموا عليهم الحجة كابن تيمية رحمه الله، فنعما فعلوا، فكأني على إثرهم.

فاعلم أن الله تعالى نزل القرآن بعد الكتب لأمرين:

١- لتكميل ما بقي من إكمال الدين.

٢- وتبيين ما اختلفوا فيه وضلوا، ونسوا بعض ما حملوا، أو زادوا فيها، أو بدلوا كما أخبرنا الوحي المحفوظ:

﴿فَوَيلٌ لِّلَّذِيْنَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ (أي كتاب الله) بأيْدِيْهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوْا بِهٖ ثَمَناً قَلِيْلاً﴾ [سورة البقرة/٧٩].

مع ذكر الله والدعوة والوعظ الذي لابد لمثل هذه الكتب المقدسة.

وإذا كان الأمر هكذا لم يقصد في القرآن إلا معالي الأمور وغوامضها، فترك تفاصيل القصص، وظواهر الأحكام، وسفاسف التاريخ. فان إيراد هذه الأمور بعد ما علمها الذين يخاطبهم القرآن يملهم ويكون عبثا. فما ذكر من القصص إلا تلميحا ومثلا على وجه البلاغة، أو إصلاحا لما بدلوا فيها من أمر عظيم. وكذلك لم يذكر من الأحكام المعلومة إلا طرفا اقتضى تهذيبا وتكميلا. والذين آمنوا بالنبي الكريم ﷺ إما كانوا من أهل الكتاب، وإما من الذين كانوا مختلطين بهم، فكانوا عالمين بما في الكتب السابقة، فلم يلتبس عليهم تأويل القرآن لبعض ما تركه، وظهرت لهم رفعة محل القرآن لما شاهدوا من الفرق العظيم بينه وبين ما سمعوه من قبل مع وفاقهما في أصل التعليم، كما ذكر الله تعالى:

﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين﴾ [سورة المائدة/٨٣].

فمما ذكرنا حصلت لنا أمور مهمة:

١- نلتمس تصحيح الكتب السابقة وتأويلها بعرضها على القرآن ليتضح الحق على أهل الكتاب.

٢- نهتدي لتأويل ما جاء في القرآن من القصص راجعين إلى القرآن عند الاختلاف لكونه محفوظا

٣- يتضح فضيلة هذه الملة الكاملة لمن تتبع درجات الارتقاء من أول الشريعة إلى شريعتنا المتممة.

٤- يتضح ما جاء من الإسرائيليات المتضادة المختلطة وتصحيح

آراء من تبعها منا

٥- يتضح على أهل الكتاب أن القرآن لا يأخذ من كتبهم، بل يقوم عوجهم، ويخرجهم من الظلمات إلى النور.

٦- تأويل أكثر آيات القرآن التي تشير إلى التوراة، وزعم المفسرون أنها تتعلق بالقرآن، مثلا آية ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها﴾ [سورة البقرة/١٠٦] وآية ﴿فينسخ الله ما يلقي الشيطان﴾ [سورة الحج/٥٢].

ولا نطوي هذه المقدمة قبل أن ندفع شبهة من النصارى يعرضونها على عامتنا، ويظنونها من أقوى الحجج علينا، وهي قولهم أن الإيمان بالإنجيل واجب عليكم، فإن خالفه القرآن في شئ كان مكذبا نفسه. ثم يلزموننا الإيمان بضلالاتهم التي خلطوا بكتابهم، ويتمسكون بآيات من القرآن مثل قوله تعالى[١٤].

---

١٤ هنا بياض في الأصل. ولعل المؤلف رحمه الله يقصد الآيات التي ورد فيها أن القرآن الكريم مصدق لما معهم. وانظر تفسير ذلك في "مفردات القرآن" للمؤلف.

المقدمة التاسعة

في مقدار السور

قد سبق مني القول بأن القصار من السور تضاهي الطوال منها قدرا، ونظما، ومعنى. فالآن أفصل ما أردت منه.

قد قالت العلماء قديما إن بعض القصار تعادل ثلث القرآن، أو أن بعضها موفية كما روينا عن سفيان بن عيينة، أن الفاتحة موفية للصلاة لكونها موفية للعلم، وكما روي عن الشافعي رحمه الله أن سورة العصر لكفت إن لم ينزل غيرها. وهذا أمر لا يكاد يخفى على أهل التدبر في بعض السور وإن زدت تدبرا علمت بفضل الله تعالى أن الله تعالى ما نزل سورة صغيرة إلا جعلها كبيرة من جهة معناها، فأدمج في صغر حجمها من العلم والحسن ما إن لو فصلها ملأت صحفا. ونبين حكمته، ونشرح كيفيته بالأمثلة وتأويلها.

أما الحكمة فهي:

١-أن أصول الدين لشدة الاعتناء والحاجة إلى حضورها في القلب لابد أن تودع في كلمات مختصرة تامة على حدة، لتكون كالأمثال السارية الخفيفة على اللسان، العزيزة في الجنان فلو عول في تعليمها على كلام طويل لضلت في مطاويه.

٢- ولما تكون القلوب في أول التعليم رتقا، فلا تتسع لتفاصيل الكلام، كما أنها لا تتسع لجزئيات الأحكام، فتلقى فيها جوامع الكلم وجماع العلم كبذر طيب، ثم تشرب بالتفصيل، فتزداد علما، كما تنفسح سعة.

٣- ولما أن العرب كانت مولعة بإيجاز الكلام كولعهم بالسجع، فخاطبهم أولا بما كانوا يرجون واستعدوا له لكي يصغوا إليه.

٤- ثم إن كهنتهم كانوا يخاطبونهم بالأسجاع الموجزة، وكانوا يذعنون لكلام كهنتهم، فلو لم يخاطبهم القرآن على ما كانوا يرجون ممن يكلمهم بتأييد غيبي لبعد عن قبولهم.

وأما كيفية كون القصار كباراً من جهة تأويلها فاعلم أن[١٥].

---

١٥ بياض بالأصل — وفي السور القصار التي فسرها المؤلف رحمه الله وخاصة سورة العصر وسورة الكوثر خير شاهد على كونها كباراً من جهة النظم والتأويل.

المقدمة العاشرة
في عيون تعليم القرآن

وهي: ١- عقائد، و ٢- أعمال

والأعمال:

١- شخصية

٢- ومنزلية

٣- ومدنية

فمن العقائد:

١- التوحيد

٢- والنبوة

٣- والمعاد، مع دلائلها

ومن الأعمال:

١- الصلاة، ومنها الحج
٢- والزكاة، ومنها الصوم

٣- ومكارم الأخلاق: وهي البر والمعروف وخلافها المنكر.
٤- والشهادة بالحق. فهذه أعمال شخصية، ولو بالجماعة

٥- ثم القسط
٦- ثم التعاون

فاعلم أنه يتعلق بالتوحيد:

١- بحث الجبر والقدر
٢- و وحدة الوجود

٣- وبها وبالنبوة الشفاعة
٤- وبالمعاد حقيقة الجنة والنار

٥- وبالقسط المواريث — ٦- والنكاح

٧- والمعاطاة — ٨- وبالتعاون الخلافة

٩- والسياسة — ١٠- والجهاد.

ثم للأعمال ينابيع في الخلق كالمحبة، والصبر، والعـزم، والتقـوى، والعدل.

ثم بعض هذه الأمور مشتبك ببعضها في الأصول، وإن شـاء الله تعالى أتكلم بما فهمت من كتاب الله في هذه الأمور حسب الحاجة.

الجهاد:

زعمت القدماء أن آية السيف نسخت كثيرا من آيـات الـوعظ المحض، وزعمت شرذمة من متكلمي عصرنا أنها لم تنسخ، ولم يكن القتال إلا دفاعا عن بيضة الإسلام، وأما جهاد الخلفاء والصحابة فما كـان إلا كقتال الملوك، ولم يكن في شئ من الجهاد في الدين.

فاعلم- هداك الله وإياي – أن الله بعث نبينا إنجـازا لمـا وعـد بإبراهيم، ووارثا لعهده: ﴿أن طهرا بيتي للطائفين والعـاكفين والركـع السجود﴾ [سورة البقرة/١٢٥] وبعثه خاتما، ومظهرا دينه على الدين كله، وأمره بالوعظ حتى يسمعوا كلامه، ولم يأذن له بالقتال حتى تتم الحجـة وتبلغ منتهاها، وأمره إذن باستخلاص الكعبة ورد الحنيفية إيفـاء لعهـد إبراهيم عليه السلام. وأذن له بالقتال بعد الهجرة، فإن القتال قبل الهجرة ظلـم وفساد، إلا أن يكون حفظا للنفس. فوجب القتال لا للدفاع بل ١- لفتح الكعبة، ثم ٢- لرد الحنيفية في أولاد إسماعيل عليه السلام وأما بغير ذرية إسماعيل عليه السلام ٣- فلإقامة القسط، ورفع الفساد عن الأرض. فلا إكراه في الـدين لأهل الكتاب، ولكل من ليس من ذرية إسماعيل، وعليهم الجزية.

وأما ذرية إسماعيل عليه السلام فهم محجوج عليهم برجل منهم، وهـو

قلبهم ولسانهم. ولا تظنن النبي الكريم ﷺ رجلا أجنبيا يرسله الله للوعظ، ولكنه الثمرة اليانعة من شجرة فطرتهم، نشأ من جرثومهم، وتربى فيهم من بين غيهم ورشدهم، ولكن طهارة فطرته جلبت إليه محاسنهم، ونفت عنه أباطيلهم حتى كاد أن يضئ ولو لم تمسسه نار فما هو إلا نقطة قـواهم، وقطب رحاهم، وعقل اختيارهم، وقلب إرادتهـم ؛ فبهدايـة الله إيـاه خضعت له تعالى أمته في ذات نبيهم كما تخضع الأعضاء إذا خـضع لـه القلب وبسط الكلام في بحث النبوة.

ثم من جهة الظاهر، فانحازت رئاسة العرب إلى قريش، والرئاسـة الدينية إلى عبد المطلب، ومنه إلى النبي الكريم ﷺ، ولذلك كـان يقـول النبي ﷺ:

أنا النبـي، لا كذب — أنا ابن عبد المطلب

ثم هو الداعي إلى ملة أبيهم، وعهدهم القديم، فالمخالف هو الباغي والمفسد القاطع.

١-ولا يكون الجهاد لدفع الفساد من الأرض إلا بعـد أن يرفـع الفساد من بين المجاهدين، فلا يستحق له إمام ولا متبوعه إلا بعد أن يكونوا قائمين بالقسط.

٢- ولا يجوز القتال لأحد في داره إلا بعد الهجرة، كما تـرى في قصة إبراهيم وآيات الهجرة (انظر المقدمة على الهجرة)[١٦] وحالات الـنبي الكريم ﷺ، فإن الجهاد من غير الملك المطاع بغي، وعدوان، وفتنة، وإهانة للمعروف.

---

١٦ لم نجد في الأصل مقدمة على الهجرة. ولكن تكلم عليها المؤلف في تفسير سورة الكافرون .

٣- ولا يؤذن للقتال إلا بعد القوة كما ترى في قصة شعيب عليه السلام: ﴿وَ إنْ كَانَ طَائفَةٌ مِّنْكُمْ آمَنُواْ بِالَّذِيْ أُرْسِلْتُ بِهِ وَ طَائفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَاصْبِرُواْ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا﴾ [سورة الأعراف/٨٧].

فالجهاد واجب بشرائطه الثلاث إلى يوم القيمة وليس الإكراه في الدين، ولا الفساد، ولا البغي. ولكن شهادة الحق واجبة، والتبليغ، والمجادلة الحسنة.

المقدمة الحادية عشرة
المعروف ما عرفته العرب صالحا، والمنكر ما أنكرته

فاعلم أن العرب في الجاهلية لم تكن كأهل الوحشة، غير فارقين بين البر والفجور. و إنا نرى من جهة الأخلاق أدبهم أفضل مما كان في أبلج أيام اليونانيين والهند. و تصدق قولي إن جمعت أشعارهم وسرحت فيها النظر، غير ملتفت إلى من شوه تاريخهم من الناس، حتى أن امرأ القيس، مع كونه ملكا، سمي بالضليل لميله إلى الشهوات. فلنورد في هذه المقدمة طرفا من كلامهم (في ضميمة) ليتبين أن لم يكن المعروف عندهم إلا مكارم الأخلاق و لم يخاطبهم القرآن إلا بما يتم ما عندهم من المكارم، لا ما يهدمه، وهكذا نجد في أحاديث رويت عنه عليه السلام. ولذلك جلب قلوب المتقين منهم و لم ينازعه إلا الأشرار وكبراؤهم الذين خافوا على إمارتهم لكونه نبيا، كما خالف كبراء اليهود عيسى عليه السلام حسدا وبغيا. ألا ترى أمية بن أبي الصلت، مع إيمانه بالحنيفية خالف النبي حسدا.

ثم النبي نفسه الذكية منبع لمعرفة المعروف والمنكر فيأمر الأمة بإلهامه فيما لم ينزل فيه وحي حتى ينزل، لمنصبه ولما أمره الله تعالى: ﴿وَ أمر بِالْعُرْفِ﴾ [سورة الأعراف/١٩٩] وأمر الله الأمة باتباعه في كل ما يأمرهم به من المعروف. ومع ذلك كان من الشرائع الإلهية بقايا في عهده كالحج، والنحر، والصلاة من الحنيفية، وما كان من السنن عند أهل الكتاب. ثم لم يأمر الله تعالى النبي الكريم ﷺ بجزئيات الأحكام أولا، بل بما هو المعروف: كالأمر بالصلاة، والذكر، والصدقة، والشفقة على اليتيم، وبمكارم الأخلاق. ثم لما نزل الله تفصيلا في أمر صار هدى الله أصلا للمعروف و لم

يبق النظر إلى المعروف. وربما أمر بالمعروف في أمر حتى نزل البيان، فنسخ المعروف فيما نزل فيه شئ وبقي فيما لم ينـزل، كوصية المحتضر في الوالدين نسخت، وفي الأقربين الذين لا وراثة لهم بقيت.

ثم لم يرد الله أن يثقلنا بجزئيات يهتدي إليها العقل والصلاح، ولو فعل كان إبطالا لقوة التقوى والصلاح، فترك قانون المعروف كما ترى في كثير من الآيات. فبإثبات المعروف ودعوة الناس إليه أكرم النبي الكريم ﷺ قانون الملك [١٧] ورسومه الحسنة ولم يرد الانقلاب والهدم، بل التهذيب والتكميل. فجاء مصدقا لما بين يديه من الأديان إجمالا، ونفى عنها الأباطيل ورد الناس إلى قديم أمرهم وهدى الله في فطرتهم من لدن آدم عليه السلام.

١٧ يعني قانون البلد.

المقدمة الثانية عشرة
في أن النظام له دلالة خاصة

كما استدل أبو بكر رضي الله عنه على قتال من أبوا إيتاء الزكاة كأنه قال رضي الله عنه علمنا أن الذين لا يصلون ليسوا منا ونقاتلهم، والله تعالى قرن الزكاة بالصلاة كثيرا فعلمنا محلها في الدين من محلها في كتاب الله ذكرا.

فإن غفلنا عما يهدي إليه النظام غفلنا عن حظ وافر من كتاب الله. وجعل حقيقة الربا خلاف حقيقة الزكاة وآذن بحرب آكل الربا فكذلك مانع الزكاة.

المقدمة الثالثة عشرة
في أجزاء النظام

لعلك تعلم أن تقسيم القرآن في الركوع[١٨] والأجزاء الثلاثين أمر محدث. وان تأملت علمت أن الركوع مقصده الفصل، فمن قرر الركوع تدبر في مفاصل الكلام حتى حمن مواضعه. وإذ هو لم يرد إلا هذا، لكيلا يقطع القارئ حيث ينبغي له الوصل، فقد أصاب فيما أراد بعض الإصابة، ولكن الحاجة بقيت إلى العلم بالترتيب. فإن التقسيم في الركوع يخبر عن الفصل فقط، ولكن مع الفصل وصلا، فإن الكلام لا ينقطع كل الانقطاع، والركوع يجعل أجزاء السور على طبق واحد. ولا يخفى أن بعض الكلام تحت بعض، كما يقسمون الكتاب بين أجزاء، ثم بين أبواب، ثم فصول، ثم فقرات. فلا يظهر من الركوع إلا الفصل المحض، فالتقسيم الركوعي مع فائدته جعل الحاجة إلى بيان النظام أشد منها قبل التقسيم. فإن قبل تعيين الركوع كان الكلام يرى متصلا، فيظهر وجوه الاتصال للمتوسم ولكن بعد وضع الركوع يخيّل للقارئ فصل الكلام بالكلية. فلزم التقسيم في أجزاء متداخلة بعضها تحت بعض.

وأما التقسيم في الأجزاء الثلاثين فتقسيم مقداري، وربما يوهم القطع، وأحب أن يترك، فإن التقسيم في المنازل يكفي، وهولا يقطع أجزاء السور. وإنما قلنا إن الذي قسم السور في الركوع أصاب بعض الإصابة، لما أنه ترك كثيرا من المفاصل من غير وجه كما ترى في سورة القمر،

---

١٨ هذا التقسيم يوجد في مصاحف شبه القارة الهندية .

قسمها في ثلاثة من الركوع، فلم يراع شيئا من أسلوب الكلام ولا من المقدار، وكان ينبغي أن يقسمها في ستة ركوعات:

١- اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ....

٢- كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ....

٣- كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ....

٤- كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ....

٥- كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ....

٦- وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ....

ونستمد ببعض إشارات من القرآن نفسه لفظية ومعنوية. أما اللفظية فترى أوائل السور مثل "يا أيها الذين"، "يا أيها الناس"، "ألم تر"، "أرأيت"، "قل"، وغير ذلك، وبهذا استمد واضع الركوع. ومن الإشارات اللفظية تبديل القافية، ومقدار الآيات، ومجانسة الأسلوب (وبهذا استمد واضع الركوع) ومجانسة العبارة.

المقدمة الرابعة عشرة
في أسماء السور من عمود السورة

ولما كان اسم شئ عنوانا لمعناه، وقد اشتهر من الأسماء مالا يخبر عن معناها، فاعلم أن أسماء السور على أربعة وجوه:

الأول: تسميتها بلفظ من أوائلها، فمنه فيما نقله السيوطي سورة الحمد، والبراءة، وسورة سبحن، وطه، وحوا ميم، ويس، واقتربت، والرحمن، وتبارك، وسأل، وعم، والمرسلات، وأرأيت، وسورة تبت. وغير ذلك وهكذا سمت اليهود كتب التوراة.

والثاني: تسميتها بلفظ اختص بها كالزخرف، والشعراء، والحديد، والماعون، وغير ذلك. فهذه الأسماء لا تنبئ عن مقصد السورة، ولكنها كالشامة والسمة تتميز بها مسمياتها. وكانت العرب تسمي الرجال والأشياء هكذا، كالمتلمس، وتأبط شرا، وهكذا المنطقي يميز المعاني بعرض خاص ليس في شئ من حقيقة المعنى.

والثالث: تسميتها بلفظ يخبر عن بعض المعاني العظيمة كتسمية سورة النور لاشتمالها على آية النور، وتسمية سورة آل عمران، وسورة النساء، وسورة إبراهيم، وسورة يونس، وكثير من الأسماء على هذا الأسلوب.

والرابع: تسمية السورة بما ينبئ عن المقصد الذي بنيت له السورة، فمنها تسمية الفاتحة بسورة الصلاة، وتسمية براءة، وسورة بني إسرائيل، وسورة محمد بسورة القتال، وسورة الإخلاص والمعوذتين. فهذا الوجه الرابع يخبر عن فهم من سمى السورة به، فلو أسموا كل سورة على هذا

الوجه لظهر نظام السور لكل متوسم، ولا بأس عندي أن نسمي كل سورة بما يهدي إلى معناها، إن لم يمنع الشرع. فالآن نبحث عن هذه المسألة ١٩.

---

١٩ بياض في الأصل.

المقدمة الخامسة عشرة

في تعيين الخطاب المحتمل وجوها

قد أجمع المسلمون على أن القرآن كله كلام الله بمعنى أن الله تعالى نزله على محمد ﷺ، لا بمعنى أن كله خطاب من الله تعالى، فان مثلا ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِيْنُ﴾ ليس إلا خطاباً من العبد. فقال العلماء: إن الله علّم هذه السورة كأنه تعالى قال: قولوا هكذا. ولكن ليس هناك كلمة "قولوا" فكيف العلم بتقدير هذا المعنى؟

وكذلك السؤال فيمن إليه الخطاب، فإن للخطاب جهتين: ١- ممن ٢- وإلى من. وكلتا هما ربما تعم والمراد خاص، وربما يعكس الأمر. وإذ يختلف المعنى كثيرا باختلاف جهتي الخطاب، وعمومه، وخصوصه وجب البحث عن أصول تهدي إلى الصواب، فإن الخطأ فيه ربما يسقط المرء في شرك الشرك قال الرومي رحمه الله تعالى: إن الله تعالى جعل الناس عبادا للنبي حيث أمره أن يدعوهم بقوله: ﴿يَا عبادي الَّذِيْنَ أَسْرَفُواْ﴾ الآية [سورة الزمر/٥٣] وظني به أنه لم يرد الشرك بالله تعالى، ولكن القول يضاهي قول الذين كفروا، فيغفر الله له والأمر ظاهر، فإن قوله تعالى: ﴿يَا عبادي الَّذِيْنَ أَسْرَفُواْ﴾ خطاب منه تعالى إلى العباد، وصدره بقوله: (قل) خطابا للنبي الكريم ﷺ لكي يبلغه إلى العباد حرفا بحرف.

واعلم أن هذا العلم طرف من علم توجيه القول العام إلى جهته الخاصة ومن لم يعلم جهة الكلام لا يصيب تأويله الصحيح، فكان ذلك مفتاحا لفهم التأويل ونظم الحديث والجهل به من أكبر مثارات الخبط،

والتخليط، وتقليب المعنى. وستجد في مقدمة ٢٠ تأسيس أصول عامة لعلم التوجيه. وجعلت هذه المقدمة أنموذجا قبل البحث عن الأصول لتستأنس به، ولأن مسألة الخطاب تكشف عما اشتبه على أكثر المفسرين، فهي جديرة بأن نتكلم فيها على حدة

فاعلم أن الخطاب إذا احتمل وجوها كان كاللفظ المشترك، فلابد من أخذ بعضها، وترك البواقي. وصنعنا في المشترك أن نعلم أولا معانيه كلها ثم نرجع إلى سوق الكلام وغايته، فنأخذ بعض المعاني المحتملة ونترك البواقي. فأول شئ في الباب أن نعلم وجوه الخطاب كلها

فاعلم أن للخطاب مصدرا ومنتهى:

فالمصدر إما هو الله تعالى، أو جبريل، أو الرسول، أو الناس

وأما المنتهى فهو الله تعالى، أو الرسول، أو الناس. والناس إما المؤمنون، أو المنافقون، أو أهل الكتاب، أو ذرية إسماعيل، أو اثنان منهم، أو ثلاثة، أو أجمعهم. وأهل الكتاب إما اليهود، وإما النصارى، أو كلاهما. فهذه ظواهر الوجوه، ثم فيها ما يلبس الأمر:

أما الالتباس في المصدر فهو بين الله تعالى، والرسول وجبريل، فإنك إذا مررت على القرآن غير ذاكر ومتفكر لم تعلم من القائل ؟ فإن النبي وجبريل رسولان من الله تعالى، فربما يتكلمان بقول من أرسل، وربما يؤديان ما أجرى الله على لسانهما. ثم جبريل رسول من الله تعالى، فربما هو يكلم النبي من حيث هو مبلغ قول الله، وربما يكلمه من حيث هو معلمه،

---

٢٠ انظر "التكميل في أصول التأويل" و"أساليب القرآن" للمؤلف ، فقد أورد فيهما جملة من أصول هذا العلم .

وقد أظهر الله تعالى أنه معلمه حيث قال: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيْدُ الْقُوَى. ذُو مِـرَّةٍ فَاسْتَوَى﴾ [سورة النجم/٥-٦] ثم هذه الحيثيات تأتي بعضها مع بعض من غير تنبيه غير ما يعلم من السياق. وهذا الأمر لا يختص بالقرآن، فإن نفس الرسالة مظنة لهذا، فترى في الزبور مثل ذلك:

"إله الجنود معنا ... اصبر واعلم أني الله ... إله الجنود معنا" [٢١]

والقاعدة في ذلك أن إيراد الكلام صريحا من الله يعطي الخطـاب جلالا وهيبة وقوة، فلا تراه إلا عند الحاجة. ونورد بعض الأمثلة، لتقـيس عليها ما لا نذكره.

المثال الأول:

سورة "اقرأ" كلام بلسان جبريل أولا، حتى إذا بلغ مقام الغـضب جاء الكلام من الله تعالى صريحا: ﴿كَلاَّ لَئِن لَّمْ يَنْتَهِ لَنَـسفعًا بِالنَّاصِـيَةِ﴾ [سورة العلق/١٥].

وأما الالتباس في المنتهى فبين النبي والمؤمنين. فربما يخاطب الله النبي و وجه الخطاب إلى الأمة، فإن النبي هو وكيل من الأمة إلى الله فهو لسانهم وسمعهم. وكثر في التوراة الخطاب بموسى بصيغة المخاطب الواحد والمراد أمته. ونعلم من سياق نظم القرآن من هو المخاطب.

في سورة التوبة: ﴿إنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَ إنْ تُصِبْكَ مُـصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ﴾ [الآية/٥٠] معناها إن تصب المـؤمنين، كما صرح في الجواب: ﴿قُل لَّن يُصِيْبَنَا إلاَّ مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَـا وَ عَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [الآية/٥١]

---

٢١ انظر مزامير ٤٦: ٧و١٠-١١

وهكذا في سورة بني إسرائيل خاطب النبي الكريم ﷺ والخطاب إلى الأمة، فقوله: ﴿إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهمـا أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما﴾ [الآية/٢٣] وغير ذلك خطاب عـام. وهكذا في سورة البقرة. ﴿ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾ [الآية/١٠٧].

وحسب هذه القاعدة نفهم قوله تعالى[٢٢].

---

٢٢ بياض في الأصل .

المقدمة السادسة عشرة
في كيفية النزول

قد علمنا من القرآن أنه لم ينزل جملة واحدة، قال تعالى: ﴿وقال الذين كفروا لو لا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا﴾ [سورة الفرقان/٣٢].

فكان القرآن ينزل حسب الوقائع، ثم يخفف بعض الأحكام، أو يكمل، فيوضع هذا المتأخر مع المتقدم أو في آخر الباب كالتتمة. وإذ لم يفصلوا الأبواب إلا بعلامة الركوع اشتبه على الناس مناسبة هذه التتمات.

١- وقد نبه الله تعالى عليها بكونها بينات حسبما وعد نبيه أن يبين له ما يقتضي البيان حيث قال: ﴿فإذا قرأناه فاتبع قُرْآنَهُ ثُمَّ إنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [سورة القيامة/١٨-١٩].

٢- ثم ربما تجد أسلوب تلك التتمات مخالفا لما قبلها وبعدها، فيتبين لك أنها تتمات.

٣- ثم ربما تجد منها ما هو كالجواب لسؤال مقدر، أو كالتنبيه على أمر غامض، مع إشارة واضحة إلى أنه كذلك.

هذا، ثم بعض السور على لسان محمد ﷺ وبعضها على لسان روح القدس، وأكثرها من الله تعالى شفاها. وهكذا نرى في الكتب العتيقة. وقد بين هذا الأمر بيانا شافيا في القرآن حيث قال:

﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء﴾ [سورة الشورى/٥١].

"رسولا" (روح القدس) "فيوحي" (ذلك الرسول القدسي) "بإذنه"

(الله) وحيث قال:

﴿قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله (القرآن) على قلبك بإذن الله﴾ [سورة البقرة/٩٧] وحيث قال: ﴿إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين وما صاحبكم بمجنون ولقد رآه بالأفق المبين وما هو على الغيب بضنين وما هو بقول شيطان رجيم﴾ [سورة التكوير/١٩-٢٥] وحيث قال: ﴿إنه لقول رسول كريم. وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون. ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون تنزيل من رب العالمين﴾ [سورة الحاقة/٤٠-٤٣].

وبسطنا القول في هذا البحث في كتاب "أسلوب القرآن"

فإن اتضح لك أن في القرآن آيات كالتتمة والبيان، وآيات من لسان جبريل، وآيات من لسان محمد عليهما السلام، وآيات من كلام الله تعالى إيحاء من غير واسطة علمت أن فهم نظام الآيات يستدعي أن تميز بين هذه الأقسام، ولا حرج أن آتي له بمثل قريب يفهمك من القصص الممثلة للعامة فإنك ترى فيها أشخاصا متكلمين بكلام يليق بأفواههم. فمن حسب أن كل ذلك كلام متكلم واحد لم يهتد لربط بعضها ببعض وهذا إنما ضربناه مثلا، والقرآن العظيم ليس حاله كحال هذه القصص.

المقدمة السابعة عشرة
في تأويل القرآن بالحديث

قد سبق مني القول بأن القرآن هو الحاكم عند اختلاف بالأحاديث. فهاهنا نريد الإيضاح، وكنت أفرق من طعن بعض إخواننا، ولكن ذهب بهم الشغف بالحديث إلى أن قالوا إن الحديث داخل تحت آية ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ [سورة الحجر/٩] و لم يتفكروا نتائج هذا القول فحان لي أن أرفع راية الصدق ولا أبالي، ولو قطعوا رأسي لديه و أو صالي.

فاعلم أن في قلوب أكثر أهل الحديث أن ما رواه البخاري ومسلم لا مجال فيه للشك. فنورد بعض ما فيهما لكي تعلم أن الله تعالى شنع اتخاذ العلماء أربابا، فلا نؤمن بما فهموا من غير النظر والفكر.

أخرج الشيخان عن أبي ذر ؓ قال سألت رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِيْ لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ [سورة يس/٣٨] قال: مستقرها تحت العرش ٢٣

وأخرجا عنه قال: كنت مع النبي ﷺ في المسجد عند غروب الشمس، فقال: يا أبا ذر ؓ أ تدري أين تغرب الشمس ؟ قلت الله ورسوله أعلم، قال: فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فذلك قوله: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِيْ لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ ٢٤.

---

٢٣ صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ومسلم ، كتاب الإيمان .

٢٤ صحيح البخاري كتاب التفسير ، باب قوله ''والشمس تجرى لمستقر لها''

ثم أذكر لك أنموذجا مما نسب إلى الصحابة ؓ وربما إلى النبي الكريم ﷺ، ثم ترى فيه اختلافا فاحشا، وأخذت للمثال أقصر سورة.

أخرج ابن أبي شيبة في المصنف، والبخاري في تاريخه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والدار قطني في الإفراد، وأبو الشيخ، والحاكم، وابن مردو يه، والبيهقي في سننه عن على بن أبي طالب ؓ في قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [سورة الكوثر/٢] قال: وضع يده اليمنى على وسط ساعده اليسرى، ثم وضعها على صدره في الصلاة ٢٥.

وأخرج أبو الشيخ، والبيهقي في سننه عن أنس عن النبي الكريم ﷺ مثله، وأخرج ابن أبي حاتم، وابن شاهين في السنة، وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس مثل ذلك.

فأي امرئ يتقي الله يجترئ على أن يشك في هذا التأويل، ولكنك تراهم رووا ما يهدم ذلك:

أخرج ابن أبي حاتم، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عن على بن أبي طالب قال: لما نزلت هذه السورة على النبي ﷺ ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ قال النبي ﷺ لجبريل: ما هذه النحيرة التي أمرني بها ربي ؟ قال: إنها ليست بنحيرة، ولكن يأمرك إذا تحرمت للصلاة أن ترفع يديك إذا كبرت، وإذا ركعت، وإذا رفعت رأسك من الركوع، فإنها صلاتنا وصلاة الملائكة الذين هم في السماوات السبع، وإن لكل شئ زينة وزينة الصلاة رفع اليدين عند كل تكبيرة. قال النبي ﷺ: رفع اليدين من الاستكانة، قال الله: ﴿فما استكانو لربهم وما يتضرعون﴾ [سورة المؤمنون/٧٦] ٢٦.

---

٢٥ الدر المنثور ٦: ٤٠٣ .

٢٦ الدر المنثور ٦: ٤٠٣ ، وفتح القدير ٥: ٥٠٤ .

وأخرج ابن جرير مثل هذا التأويل للنحر ٢٧، وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس مثل ذلك.

ثم تراهم يروون عن ابن عباس ما يخالف التأويلين: أخـــرج ابـــن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس (وانحر) قال: الصلاة المكتوبة، والـــذبح يوم الأضحى٢٨.

وأخرج البيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله: (وانحـــر) قـــال: يقول: فادع يوم النحر وهكذا يروون عن سعيد بن جـــبير، وعكرمـــة، وقتادة. وهكذا ترى في تأويل الكوثر.

ومثل ذلك ترى ما رووا عن ابن عباس في معنى الفلـــق روايـــات مختلفة. فلا سبيل إلى الاطمئنان من هذه الروايات المتناقضة التي لا يـــزداد شاربها إلا ظمأ والراكن إليها إلا قلقا ولكنك إن أخذت السبيل الواضح: وهو اتباع اللغة السائرة، والنور البازغ: وهو التدبر في القرآن هديت إلى صحة معنى (وانحر) واطمأننت به.

---

٢٧ انظر جامع البيان في تفسير القرآن (تفسير الطبري) ٣٠: ٢١٠-٢١١ .

٢٨ جامع البيان ٣٠: ٢١١ .

تفسير آية

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم نحمدك بأسمائك الحسنى، ونسألك أن تصلى على محمد ذي المقام الأسنى، صاحب قاب قوسين أو أدنى ونسألك اللهم أن تخلصنا عن هواجس المنى، وتمنحنا من ذكرك ذخرا لا يفنى.

أما بعد: فهذا تفسير آية "بسم الله"، وهو أول جزء مـــن جـــذر كتاب "نظام القرآن" بعد الكتب التي جعلناها تقدمة له و وسيلة إليه وإنما جعلنا لتفسير هذه الآية العليا جزءاً مستقلا لما رأيناها:

١. جامعة لمعارف عظيمة.
٢. وقد جعلها الله إكليل السورة.
٣. وتفسيرها في كل موضع يوجب محض التكرار.
٤. وذكرها مع بعض السور دون بعض ترجيح من غير مرجح.

والقول بأنها في أول سورة الفاتحة من آياته وفي أوائل السور الأخر زائدة

تذكرة

في قول "بسم الله" استعاذة لما فيه اعتصام بالله، وتوكل عليه. فيكون مـــن الاستعاذة كما قال الله تعالى: ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون﴾٢٩.

---

٢٩ سورة النحل: ٩٨-٩٩ .

قول فيه اختلاف بين العلماء، ولعل الحق فيه مع من لا يفرق بين الفاتحة وغيرها في هذا الأمر، سواء كانت داخلة في آيات السورة أو خارجة. وحينئذ صار شأن هذه الآية كشأن الأمور الكلية، ولو لم يكن هذا تفسير آية من القرآن لجعلنا من المقدمة التي تضمنت كليات المعارف. وكان من شرط كتابنا أن نجعل للكليات ذكرا منفردا ليحول إليه، فنكون في غنى عن تكرار القول مهما أمكن. بسم الله الرحمن الرحيم نبدأ، وإليه نبرأ، وبه ندرأ.

(٢)

هي مأثورة معنى، كما ترى في كتاب سليمان: ﴿إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم﴾ [سورة النمل/٣٠] وأما في كتاب اوستاتير للمجوس فهذا الكتاب منحول، ويعلمه الناقد البصير، لا تقبله المجوس إلا شرذمة قليلة من أحداثهم. وكم من آية نزلت قبل القرآن ولكن غير بالغة فصاحته كما ستعلم في الفاتحة وغيرها.

وهي آية من الفاتحة، وفاتحة لكل سورة بدليل النزول والحفظ فإن الله تعالى وعد حفظ القرآن، وبدليل معناها المناسب بالابتداء، وتأويلها الذي سيأتيك قريبا، ولما روي أنها آية من الفاتحة.

الباء لإظهار العظمة، والبركة، والسند وهذا الكلام ليس للخبر، ولكنه صار دعاء مثل ﴿الحمد لله﴾ كما ستعلم.

وأمر به أولا: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ [سورة العلق/١] وجعل أساس الدين الصلاة وأساس الصلاة ذكر اسمه، كما قال: ﴿وذكر اسم ربه فصلى﴾ [سورة الأعلى/١٥] أيضا: ﴿واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا﴾ [سورة المزمل/٨] "تبتل إليه" أي صل له، كما يعلم من نسق الآية.والاسم واسطة لذكر الشئ، فذكر اسم الله ذكر الله وهو أساس

الصلاة، فأبقي ذكر الله حين تعذرت الصلوة بصورتها الكاملة. وأمر به حين أمكنت تنبيها على أنه هو الأصل كما قال: ﴿فإن خفتم فرجالا أو ركبانا فإذا أمنتم فاذكروا الله (أي صلوا له) كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ [سورة البقرة/٢٣٩] في صورتها الكاملة.

وكذلك نبه حين أمر موسى أول مرة، فقال عز من قائل:

﴿إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكرى﴾ [سورة طه/١٤].

وقال: ﴿والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلوة﴾ [سورة الأعراف/١٧٠].

وكما أن الله تعالى جعل الاستعاذة أمانا من الشيطان جعل اسمه أمانا من النسيان وهو من الشيطان كما يلمح مما أتبع تسبيح اسمه قوله: ﴿سنقرئك فلا تنسى﴾ [سورة الأعلى/٦].

فحسن به ابتداء القرآن لما يطمئن به القلب كما قال:

﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ [سورة الرعد/٢٥].

وعلمت أن ذكر الله أساس الدين فجعله أساس القرآن، وبه نزل أولا، وبذلك أمر النبي الكريم ﷺ.

ثم "بسم الله" إقرار بأن المنة له، والقوة منه. كأنا نقول ما أنعم الله علينا لاستحقاقنا، بل لحاظا لاسمه الرحمن الرحيم، كما ترى في غير واحد من آيات التوراة. وأن لا قوة لنا إلا به، ولذلك أمر الله النبي الكريم ﷺ بذكر اسمه في أول الوحي واسم الله أول ما نزل على موسى حين هيأ الألواح على الطور، فجاء في الباب ٣٤ من كتاب الرحلة ٣٠.

---

٣٠ أي كتاب الخروج .

"أن الرب نزل في الغمام و وقف به هناك، وأعلن" اسم الله" ومر به الرب أمامه وأعلن الرب "الله الرب الرحمن الرحيم الحليم البار الحق" راحما على ألوف، غافر الظلم والجناح والإثم الذي لن يمحو منتقما لظلم الآباء على البنين وبني البنين إلى الثالث والرابع. وبادر موسى وسجد على الأرض وصلى"

نقلت هذا كله لكي تعلم مكان بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة بعده وهكذا فسر القرآن في حال موسى حيث قال تعالى:...[٣١] ويلمح لك منه تأويل سورة "اقرأ" و"سبح اسم ربك" فهما مثل ما في صحيفة موسى عليه السلام ونبسط بعض القول تحتهما، وتأويل سورة الفاتحة كما سيأتيك. فهذا معنى إظهار البركة والعظمة.

فأما السند فهو طرف آخر من معنى القرآن، الجم الإشارات فقوله تعالى: ﴿بسم الله﴾ الآية، أن هذا الكلام منزل من الرب إشارة إلى ما جاء في الخامس من كتب موسى (التثنية) الإصحاح الثامن عشر: ١٨-١٩:

"أبعث لهم من بين إخوانهم نبيا مثلك وأضع كلامي في فمه وهو يكلمهم بكل ما آمره ويقع أن من لا يصغ إلى كلماتي التي هو يكلم باسمي أحاسبه".

وهكذا وقع فمن لم يؤمن بهذا النبي حاسبه الله حسابا شديدا. وقد رأينا أن أول الوحي جاء باسمه تعالى، فقال: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ وحسب ذلك نزلت السورة باسمه تعالى.

---

٣١ بياض في الأصل ولعل المؤلف رحمه الله تعالى يقصد قوله تعالى في سورته طه: ﴿إنني أنا الله لا إله أنا فاعبدني واقم الصلوة لذكرى﴾ .

ثم شفعه باسمي الرحمن الرحيم ليشمل صفة...[٣٢] وضيعت اليهود هذا الاسم فتجلى ربهم لهم بصفة القهر، وتقنع رسولهم بالهيبة والشدة لقساوتهم، وضيق عليهم في أحكامهم لبغيهم، كما قال في سورة الأنعام:

﴿وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم، ذلك جزيناهم ببغيهم﴾ [الآية/١٤٦].

ألا ترى كيف شهد به إسبنوزا اليهودي، حيث قال:

" فنقول إن إلههم كان غضبان عليهم، لامن يوم عمروا مدينتهم كما قال يرميا، بل من يوم أعطاهم أحكامهم، ويشهد على ذلك قول حز قيل: ٢٥ من ٢٠" لذلك أعطيناهم قوانين لم تكن صالحة وأحكاما ما كادوا يعملون بها ".

وبسطة القول في تفسير سورة الأنعام.

وإن تأملت في هذا الأمر علمت أن مثل هذا الدين لا يدوم فالرحمن لا يترك الناس في المضيق والعسر كما بشرهم، وأخبرنا في القرآن في سورة الأعراف:

قال (لموسى) ﴿عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل﴾ [الآيتان/١٥٦ و١٥٧].

وفي سورة بني إسرائيل: ﴿عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا﴾ [الآية/٨].

---

٣٢ بياض في الأصل .

فإنهم لما استحقوا العذاب بعبادة العجل حين توجهت إليهم رحمة ربهم، وكانوا كامرأة خانت مولاها ليلة عرسها، أخر ربهم الرحمة إلى بعثة أخرى ليتجلى لهم يوم تلك البعثة بصفة الرحمة. وكذلك وصف نبينا: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعلمين﴾ [سورة الأنبياء/١٠٧] وقال: ﴿حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم﴾ [سورة التوبة/١٢٨] وكذلك وصف صحابته ﴿أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾ [سورة الفتح/٢٩].

(٣)

مفهوم اسم الله تعالى وأنه من أعظم بقايا الدين الصحيح

الألف واللام للتعريف فلا يسمى بهذا الاسم إلا الله تعالى الواحد خالق السماوات والأرض وجميع الخلق. وهذا المعنى هو المعلوم عند العرب قبل الإسلام، فإنهم مع شركهم لم يجعلوا أحدا من آلهتهم مساويا بالله تعالى، وأقروا بأن الله تعالى هو خالق السماء والأرض. وإنما عبدوا آلهة أخرى لظنهم بأن هؤلآء مقربون، فيشفعون لهم، كما جاء في القرآن: ﴿ويقولون هولاء شفعاءنا عند الله﴾ [سورة يونس/١٨].

وأيضا: ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ [سورة الزمر/٣].

وأيضا: ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله. فأنى يؤفكون. الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له. إن الله بكل شئ عليم. ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله. بل أكثرهم لا يعقلون﴾ [سورة العنكبوت/٦١-٦٣].

وزعم بعض الكتاب من المسيحيين أن هذا الاسم أصله "ايل"٣٣

٣٣ انظر كلمة Eil في Encyclopedia of Religion and Ethics

كما جاء في العبرانية في أكثر التراكيب، مثل إسرائيل (عبد الله) وإسماعيل (سمع الله) وعما نويل (الله معنا) واشتقوه من بعل، وظنوا أنه من أسماء الشمس٣٤ وهذا ظن باطل، وهو ممن يجحد بالنبوات ويزعم أن دين العبرانيين إنما هو مأخوذ من دين الوثنيين.

والحق أن العبرانية أضاعت حرفا واحدا من أكثر الثلاثي، والمحققون يطلبون صحة ألفاظ العبرانية من ردها إلى العربية، فإنها أكمل الألسنة السامية وأقربها إلى الأصل أوهي الأصل كما ثبت عند علماء هذه اللغات، واعترف به المستشرقون من المسيحيين وقد بقي في العبرانية أينا هذه الكلمة على أصلها، فإن أول كلمة تبتدئ بها التوراة هي كلمة "إلوهيم" وهي مستعملة كثيرا في التوراة.

وهذه الكلمة من أعظم ما ورثته العرب من الدين الصحيح، وقد أضاعته اليهود والنصارى. فإنه ليس عندهم اسم خاص لله تعالى، فإنهم يستعملون اسم الله لغيره تعالى وهو عندهم بمنزلة السيد كما ترى في المزمور الثاني والثمانين:

١. الله قائم في مجمع الله في وسط الآلهة يقضي.
٢. حتى متى تقضون جورا وترفعون وجوه الأشرار.

الكلمة التي ترجموها "بالله" هي "إلوهيم" وهي واحد وجمع معا فإنهم يزيدون علامة الجمع "يم" للتعظيم أيضا. فقوله "في مجمع الله" أصله في مجمع الآلهة كما تبينه الفقرة التالية، ومجيئ الفقرة التالية المشابهة كثير جدا في العبرانية، فالمعنى: إن الله تعالى قائم شهيد في مجمع الحكام ويقضي

٣٤ انظر كلمة BAAL, BEEL, BEL "God" في Encyclopaedia of Religion and Ethics

هو في وسط القضاة فكيف وإلى متى تقضون بالجور وتراعون جانب الأشرار الظالمين٣٥.

والقرآن جاء بالبيان الواضح لهذا المعنى، فإنه كثيرا ما ينبه على ما اشتبه عليهم فقال تعالى: ﴿ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شئ عليم﴾ [سورة المجادلة/٧].

فانظر كيف أنهم لم يفرقوا بين الله والحكام، فجعلوا لهما اسما واحدا وهكذا في سفر الخروج ٤ عدد ١٦:

"وهو (هارون) يكلم الشعب عنك وهو يكون لك فما وأنت تكون له إلها".

ومثله في سفر الخروج ٧ عدد ١:

"فقال الرب لموسى انظر. أنا جعلتك إلهاً لفرعون. وهارون أخوك يكون نبيك".

أي جعلتك أميرا، وهارون سفيراً منك إليه، فيكلمه من جانبك

ومنه ما جاء في سفر التكوين ٣٢ عدد-٣٠:

" فبقي يعقوب وحده وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر ٢٥ ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حق فخذه فانخلع حق فخذ يعقوب في مصارعته معه. ٢٦ وقال اطلقني لأنه قد طلع الفجر، فقال لا أطلقك إن لم تباركني. ٢٧ فقال له ما اسمك فقال يعقوب ٢٨ فقال له لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت ٢٩ وسأل يعقوب وقال أخبرني

٣٥ وانظر "مفردات القرآن" للمؤلف .

باسمك فقال لما ذا تسأل عن اسمي وباركه هناك ٣٠ فدعا يعقوب اسم المكان فنيئيل. قائلا لأني نظرت الله وجهاً لوجهٍ ونجيت نفسي".

وهذه قصة عجيبة معضلة لا مخرج لهم من حماقاتها، وذلك من استعمالهم كلمة "الله" و"ايل" حيث ينبغي لهم جبار، أو عفريت فترى أنه لم يكن لاسم الله عندهم كبير منزلة، وكان مثل اسم الأمير، والسيد، والجبار، والشديد، وكذلك معناه عندهم القوي الشديد، والاسم الخاص لله تعالى عندهم آخر وهو "يهوه" ولكنهم شاكون في حروف هذه الكلمة وحركاتها، فلا يمكنهم التلفظ بها جاء في سفر الخروج ٦ عدد ٢-٣.

"ثم كلم الله موسى وقال له أنا الرب ٣ وأنا ظهرت لإبراهيم وإسحاق ويعقوب بأني الإله القادر على كل شئ وأما باسمي **يَهْوَهْ** فلم أعرف عندهم".

فعظمت اليهود هذا الاسم الذي خص به الله نبيهم موسى، وجعلوه أعظم أسماء الله، وظنوا أنه لا ينبغي النطق به فكان إمام الشعب يتكلم به مرة في السنة، ولكي يمتنع الناس عن التكلم به جردوه عن الحركات فبقي الاسم مجهولا. وإذا مروا عليه لا يتكلمون به لجهلهم بحركاته، بل يلحدون فيه عن صحيح القراءة، ويقرؤون عوضه "ادوينم" فيا للعبرة ! إنهم لم يضيعوا كتاب الله فقط بل ضيعوا اسم الرب فسدّ عنهم باب الدعوة لما ضيعوا معناه، وحق عليهم قوله تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ [سورة الصف/٥].